مختارات من الأدب العالمي للشباب

نساء صغيرات

Little Women

لويزا ماي ألكوت

إعداد وتقديم

وفيق صفوت مختار

دار الطلائع

الكوت؛ لويزا ماي
نساء صغيرات little Women/ لويزا ماي ألكوت، إعداد وتقديم وفيق صفوت مختار - القاهرة. دار الطلائع للنشر والتوزيع ٢٠١٨
٤٣٢ ص؛ ٢٠سم (سلسلة من الأدب العالمى للشباب)
تدمك: ١ ٨٣٣ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القصص الامريكية
٢ - قصص الأطفال
٣- مختار، وفيق صفوت (معد)
أ - العنوان ٨٢٣
رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٥٨٨
الترقيم الدولي: ١ - ٨٣٣ - ٢٧٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨

تصميم الغلاف الفنان: إبراهيم محمد إبراهيم

● جميع الحقوق محفوظة للناشر ●

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات تطلب على عنوان الناشر.

32 شارع أحمد فخـــري
- مدينة نصر - القاهرة
تليفون: 23546392 (202+)
فاكس: 23546393 (202+)

E-mail : info@altalae.com
Web site: www.altalae.com

مقدمة

هذا هو الإصدار التاسع من سلسلة الأدب العالميّ للشباب، والذي نُقدِّمه ونحن علي ثقةٍ بأنَّه سيكون بإذن الله تعالي عملًا متميزًا وفريدًا في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

لقد قمتُ بالاطلاع علي أغلب الإصدارات العربيَّة التي تناولت رواية «نساء صغيرات» للروائية الأمريكية ذائعة الصيت «لويزا ماي ألكوت» بالترجمة، كي يتسنى تقديم الأجمل والأحق بالقراءة الممتعة الشيقة. ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها قليلة بعض الشيء، وكانت ترجمات تتسم ببعض الصعوبة في كلماتها أو عباراتها.

وكما هو مُعتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية فقد تخلصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي نُقدِّمه. كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصَّعبة والعبارات الغامضة التي جاءت في بعض الترجمات. كما حاولت أن أُقدم بعض الهوامش لتوضيح ما قد يصعب فهمه علي القارئ، من مصطلحات أو مفاهيم تضمنتها الرواية.

وبعد هذه المُعالجات الفنيَّة والدراميَّة للرواية أري أنَّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلي أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيتها الدرامية.

حافظت بالطبع علي ما جاء في النَّص الأصلي للرواية الذي كان مصدري الرئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تمامًا عن النّصوص التي جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلة إخلالًا أضر بالعمل الأصلي للرواية.

وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي نتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق «عبد اللطيف عاشور»، التي تُحتم علينا تقديم تلك الأعمال العالميَّة الفريدة علي أعلي مستوي من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشيق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ علي المضمون الأصلي للرواية شكلًا ومضمونًا، وفقًا للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية.

كما أود أن أُنوِّه بأنَّ كافة العناوين الرئيسة لفصول الرواية قد تمَّ وضعها بمعرفتي الشخصيَّة، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لابدَّ منها.

وكما هو معتاد مع سائر الروايات التي صدرت من قبل فإنَّني أُقدِّم تمهيد يسبق فصول الرواية وأحداثها للكاتب أو الكاتبة أحاول فيه أن أسرد السيرة الذاتية من جهةٍ، والسيرة الأدبية من جهةٍ ثانية، مع تدعيمها بالصور التي تخدم الموضوع بما يُحقِّق للقُرَّاء متعة إضافية. وقد سبق لي نشر هذه الدراسة عن الكاتبة «لويزا ماي ألكوت» علي صفحات مجلة دُبي الثقافية.

خالص الأمنيات بقراءةٍ ممتعةٍ شيقةٍ.

وفيق صفوت مختار

القاهرة، في نوفمبر 2017.

تمهيد

إنَّها الكاتبة والروائية الأمريكية الشهيرة، التي مهدَّت الطريق للروائيين الأمريكيين الذين أرسوا تقاليد الرواية مع مطلع القرن العشرين، والتي مازالت بعض رواياتها رائجة تجاريًا حتى الآن، برغم مرور أكثر من مائة وخمسين عامًا علي تأليفها، بل تُترجم معظمها إلي اثنتي عشرة لغة عالمية.

عُرف عنها دعوتها لتحريم العبودية، وتطوعها للعمل كممرضةٍ عند نشوب الحرب الأهلية الأمريكية (في الفترة من عام 1861 إلى 1865).

كما أنَّها كانت من دُعاة حقوق المرأة، ومن أشدّ المؤيدين لممارسة حقوقها الاجتماعيَّة والسياسيَّة كالحق في الاقتراع والانتخاب. وقد كانت حياتها الأُسرية الصَّعبة سببًا رئيسًا في جعلها تمارس الكتابة الشعرية والروائية.

ولدت «لويزا ماي ألكوت» Louisa May Alcott في29 نوفمبر من عام 1832، بمدينة «جيرمان تاون» بولاية «بنسلفانيا».وهي ابنة الفيلسوف والمُربي الأمريكي «برونسون ألكوت» (1799- 1888) Bronson Alcott، الذي نبعت شهرته من إطلاقه لمشروعين لم يعمرا طويلًا، تمثلا في تأسيسه لمدرسةٍ غير تقليدية، وإنشائه لمجتمعٍ مثالي أطلق عليه اسم «فروتلاندز» Fruitlands.كما ساهم في ذيوع صيته ارتباطه بـ«الفلسفة المُتعالية» Transcendentalism. وقد قام «ألكوت» بإنشاء عدد من مدارس الأطفال في الولايات الجنوبية من أمريكا. وكان من مُعارضي أسلوب العقاب البدني للطلاب، إذ كان من أفكاره المبتكرة في مدرسته غير

التقليدية التي أنشأها قصر عقوبة الطالب المذنب على تكليفه بضرب يدّ مُعلِّمه بالمسطرة، من منطلق أنَّ ذنب الطالب هو مسؤولية المُعلِّم، وإنَّ إتباع هذا الأسلوب سيشعر الطالب بالحرج والذَّنب وهو ما يفترض أن يكون أكثر فعالية من الخوف المرتبط بالعقاب البدني. إلَّا أنَّ مدرسة «ألكوت» هذه تعرَّضت لكثيرٍ من النقد الحاد من المجتمع والصحافة، فانتهي الأمر بإغلاق المدرسة.

• دراسة الكاتب عن الروائية (دُبي الثقافية)•

وقد تعرَّضت فلسفة «ألكوت» للكثير من النقد أيضًا، بوصفها غير متماسكة وغامضة. إلَّا أنَّه من الناحية التربويَّة قد وفّر أساسًا للأجيال اللَّاحقة من دُعاة «التعليم الحرّ» Free Education. كما أنَّ الكثير من أساليبه ومبادئه التعليمية قد تمَّ تبنيها فيما بعد من قبيل: «التدريس بالتشجيع» Teaching encouraged، و«التعليم عن طريق الفن والموسيقى» Education through art and music و«التعلُّم عبر الخبرة» Learning through experience.

ولقد كانت المدرسة التي كان يمتلكها والدها ويديرها بمثابة المقر الذي قضت فيه «لويزا» شبابها. وعلي الرغم من أنَّها تلقت تعليمها كلَّه علي يدِّ أبيها إلَّا أنَّ عقلها كان من النضج بحيث استقلت في تفكيرها وأصبحت لها نظرة خاصَّة في الحياة. وقد ولَّد هذا إحساسًا بالذنب تجاه أبيها؛ لأنَّها لم تجله الإجلال الواجب الذي كان يتلقاه من أخواتها.

لم تكن حياة «لويزا» مُريحة اقتصاديًا، بل اضطرت إلي القيام ببعض الأعمال اليدوية الشاقة لكي تُساهم في الإنفاق علي أسرتها المتعسرة

ماديًا. كما أنَّ الجوّ الخانق والكئيب الذي كان يُحيط بها، جعلها تلجأ إلي الكتابة الشعرية والروائية حيث وجدت فيهما متنفسًا مريحًا لكُلِّ ما يعتمل في وجدانها من أفكارٍ وصِّراعات.

• لا أظن أنني فهمت الرجال..كانت آخر كلماتها قبل الرحيل الأبدي!!

كانت «لويزا ماي ألكوت» تشكو طيلة حياتها من الشعور بفقدان الاتزان (الدوخة) والصُداع النصفي ولم تجد لهما أي علاج ناجع. وفي ليلة السَّادس من مارس1888، وهي اللَّيلة التي دُفن فيها والدها، خرجت من بيتها مُسرعة ونسيت أن تضع شال الفراء حول كتفيها فأصيبت ببردٍ شديدٍ ورعشةٍ عنيفةٍ، فنُقلت إلى بيتها، وقد أحاطها عدد من الأطباء الذين اختلفوا حول ما أصابها: هل هو أزمة قلبية؟ أم جلطة؟ أم ضعف عام.. وظلوا يتناقشون حتى سقطت بينهم صريعة، وقد كانت آخر كلمات نطقت بها: «لا أظن أنَّني فهمت الرِّجال».دُفنت «لويزا» في مدينة «بوسطن»عن عُمر يناهز 56عامًا.

• الولوج في أعمال «لويزا ماي ألكوت» الإبداعيَّة :

• لويزا ماي ألكوت في شبابها •

كان أوَّل عمل يُنشر لها هو كتاب «زهرة الخرافات»، كتبته عندما بلغت السَّادسة عشرة من عُمْرها، ولكنَّه لم يُنشر إلَّا في عام 1854 عندما كانت في الثانية والعشرين. وعلي الرُغم من اعتقاد «لويزا» بأنَّ الكتاب قد بيع بشكلٍ جيدٍ إلَّا أنَّها لم تتلق من الناشر «جورج بريغز» George Briggs كأجرٍ لهذا الكتاب إلَّا (35) دولارًا فقط.

وفي عام 1863 نشرت أوَّل كتاب لها يحوز علي شهرة بعنوان «لقطات من المستشفي» الذي اعتمدت في مادته علي خطاباتها التي أرسلتها عندما خدمت كممرضةٍ متطوعةٍ في المستشفي العسكري بـ«جورج تاون» George Town.

وكانت الخطابات زاخرة بصور حيّة ونابضة لكُلِّ ما رأته وعايشته. ومن خلال هذا العمل استطاعت أن تتعرَّف علي إمكاناتها في السرد والوصف، وهي الإمكانات التي برزت عندما أصدرت أعظم عمل عُرفت به، وهو روايتها «نساء صغيرات» التي جلبت لها الشهرة سواء داخل وطنها أو خارجه.

صدرت رواية «نساء صغيرات» Little Women في جزأين، الأوَّل في عام 1868، والثاني في عام 1869، وقد أوضحت «لويزا» «من خلال عنوانها الفرعي بأنَّها رواية لصِّغار القُرَّاء، وكانت النساء الصَّغيرات كالتالي: «ميج»، و«جو»، و«بيث»، و«إيمي».وقد كتبت هذه الأسماء مع العنوان الرئيس.

لم يكن في نية «لويزا» أن تكتب هذه الرواية أصلًا لولا اقتراح «توماس نايلز» Thomas Niles أحد الناشرين وأصحاب المطابع في «بوسطن» الذي أغراها بكتابة تاريخ عائلتها كما لمسته بنفسها في قالب روائي. وكان الاقتراح إيجابيًا للغاية بحيث جلب لها الشهرة والثروة معًا. وعلي الرغم من أنَّ الفتيات الصَّغيرات كن الجمهور المقصود بالرواية، فإنَّها استطاعت أن تغلغل إلي القُرَّاء الأكبر سنًا، وأصبح كثير من مشاهد الرواية ومناظرها من صميم الأدب الفولكلوري في أمريكا.

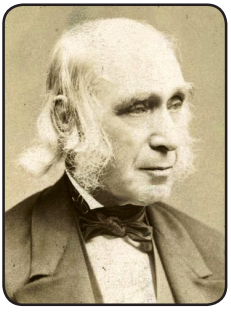

لم يكن للرواية شكل فني متكامل بحيث استطاعت المؤلِّفة أن تُضيف إليها ملاحق جديدة كُلَّ ما طرأت علي بالها أفكار جديدة. فقد كانت تظن أنَّ لذة السرد الروائي هي متعة كافية في حدِّ ذاتها للقارئ. ولذلك يتوقف إنجازها الأدبي عند هذه الحدود، ولكن هذا لا ينفي رياديتها لفنِّ الرواية الأمريكيَّة.

•برونسون ألكوت والد الكاتبة •

صادف الجزء الأوَّل من الرواية نجاحًا تجاريًا كبيرًا فقد تمَّ بيع أكثر من ألفي نسخة، كما لاقي العمل نقدًا إيجابيًا للغاية، وسرعان ما وصف النُقَّاد الرواية الجديدة بأنَّها «رواية كلاسيكية».

كما نادي القُرَّاء بضرورة إصدار جزء ثان يتم فيه زواج البطلة «جو» من صديق طفولتها «لوري». وقد تلقت «لويزا» رسائل كثيرة، وحتى زوارًا في بلدتها طلبًا للتكملة. ممَّا دعي «لويزا» إلى كتابة الجزء الثاني والذي لاقي أيضًا نجاحًا كبيرًا. وقد نُشر كلا الجزأين للمرَّة الأوَّلى في مجلدٍ واحدٍ في عام 1880.

تدور أحداث الرواية حول أربع أخوت صغيرات لكُلٍّ منهن وضع خاص وشخصيَّة مختلفة ومستقلة، فـ«جوزفين مارش» Josephine March، أو «جو» (Jo) فتاة في الخامسة عشرة من عُمْرها، تشبه في شخصيتها الكاتبة نفسها. تميل«جو» إلي الحركات والتصرُّفات العنيفة، وترغب في شق طريقها ككاتبةٍ مرموقةٍ، تتميَّز بالجرأة الشديدة التي غالبًا ما تُسبِّب لها الكثير من المتاعب.

وهي قريبة من أختها الأصغر «بيث»، التي تحاول بشتى الطرق مساعدتها في أن تصبح شخصية لطيفة ورقيقة. ترفض «جو» اقتراح الزواج من صديق العائلة الشاب الثري «تيودور لورانس» Theodore Laurence، أو «لوري» (Laurie)، كما كانوا يدللونه، والذي كان بدوره يرغب في الزواج منها.

بعدها تنتقل «جو» إلى مدينة «نيويورك»، وتلتقي في وقتٍ لاحق بالبروفسور الألماني الكهل «فريدريك باير» Frederick Bhaer التي تتزوجه في النهاية. وقد كتبت «لويزا» فيما بعد: «جو ينبغي لها أن تظلّ الأديبة العانس، ولكن الكثير من السَّيِّدات الشَّابات المتحمسات كتبن لي رسائل صاخبة يُطالبن فيها بأن تتزوج «لوري»، أو أي شخص آخر، ولم أكن أجرؤ على الرفض والعناد».

أمَّا «مارجريت مارش» Margaret March، أو «ميج» (Meg)، فهي الأخت الكبرى، وتبلغ من العُمْر (16) عامًا، تتمتع بجمال ساحر وأخاذ، وتتمني أن تعيش حياتها كسَيِّدة صالون من الطبقة الراقية.

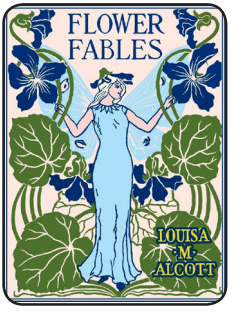

•زهرة الخرافات•

تتحمَّل مسؤوليات أسرتها، وتُساعد في القيام بالأمور المنزلية أثناء غياب والدتها. ونظرًا لفقر الأسرة يتعيَّن عليها أن تعمل بمثابة المربية لأسرة ثرية في المدينة. في وقتٍ لاحقٍ من الرواية، تتزوَّج من «جون بروك» John Brock مُعلِّم «لوري»، وينجبان توأمًا، وطفلة ثالثة تُدعيّ «جوسي» Josie.

علي حين أنَّ «إليزابيث مارش» Elizabeth March، أو«بيث» Beth تبلغ من العُمْر (13) عامًا، وهي تتسم بالطاعة والهدوء والخجل بدرجةٍ كبيرةٍ، لدرجة أنَّها تُفضل أن تدرس في منزلها مبتعدة عن الناس. كما أنَّها تجيد العزف على البيانو، و تُحب الدُمىَ والقطط.

في بداية الرواية، تصفها الكاتبة باعتبارها فتاة جميلة، ذو وجه شاب مستدير وشعر بُني، ممَّا يجعلها تبدو أصغر من عُمْرها الحقيقي. و«بيث» تُحبّ كثيرًا الأعمال الخيرية. تُصاب بعدوى الحُمَّى القرمزية من أحد أطفال عائلة «هاملز» الألمانية الفقيرة أثناء رعايتها لهم. وعلى الرُغم من بذل «جو» و«ميج» قصارى جهدهما لتمريضها، إلَّا أنَّ حالتها تسوء فتضطران إلى استدعاء أمَّهن حتى تتمكَّن من وداع ابنتها، ومع وصول الأمّ تتماثل «بيث» للشفاء ولكن المرض يتركها ضعيفة بشكلٍ دائمٍ.

في الجزء الثاني من الرواية عندما تبدأ أخواتها في مغادرة منزلهن، يكون كُلّ ما تريده «بيث» هو أن تبقى في المنزل مع والديها. وعندما تتدهور صحّتها مرَّة أخرى بعد إصابتها بداء السل، تهرع «جو» في العودة

إلى المنزل لتكون ممرضة لها، ولكن يكون الوقت قد فات لإنقاذها وإبقاءها على قيد الحياة.

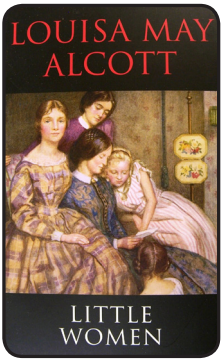

•رواية نساء صغيرات•

وأخيرًا الشقيقة الصغرى«كورتيس مارش» Curtis March، أو «إيمي» (Amy)، والتي تبلغ من العُمْر (12) عامًا عندما تبدأ الرواية، تأمل في أن تصبح فنانة عظيمة مشهورة حتى تشبع نزعتها الأنانيَّة المتفرِّدة في إثبات ذاتها.

تصفها «لويزا» بأنَّها فتاة شابة ذات شعر مُجعّد وعيون زرقاء. أنفها مسطح، على ما يبدو بسبب أنَّ «جو» أسقطتها عندما كانت طفلة. «إيمي» تنتبه بشدةٍ إلي هذا الخلل، حيث تسعي في الفصول الأوَّلى من الرواية لعلاج هذا الخلل من خلال وضع مشابك الغسيل على أنفها حين تنام. تهتم بأسرتها، ولكنَّها في كثيرٍ من الأحيان «تتدلل» لأنَّها الابنة الأصغر، وتميل إلى اصطناع نوبات من الغضب عندما لا تسير الأمور في طريقها الذي تريده هي.

علاقتها مع أختها «جو» على وجه الخصوص ـ غالبًا ما تتسم بالتوتُّر بسبب أنَّ «جو» تثيرها وتعمل علي إغاظتها، سيما عندما تحاول «إيمي» استخدام الكلمات الكبيرة، فتتلفظ بها خطأ أو لا تحسن استخدامها بشكلٍ صحيحٍ. وتصل الأمور بينهما إلى ذروتها عندما تمانع «جو» اصطحاب «إيمي» إلى المسرح مع «لوري».فتقرِّر «إيمي» الانتقام من «جو» بإحراق روايتها غير المكتملة.

وعندما تكتشف «جو» فعلتها، تثور قائلة لها :«أنا لن أغفر لكِ! أبدًا»! تحاول «إيمي» الاعتذار إلَّا أنَّ «جو» تُصر علي الرفض. وفي النهاية تصفح «جو» عنها وتصبح أكثر قربًا منها.

عندما مرضت «بيث» بالحمى القرمزية، أُرسلت «إيمي» إلى عمَّتها حتى لا تُصاب بالمرض، فتستأثر بقلب عمَّتها فتختارها لاحقًا لتكون رفيقتها في أسفارها إلى أوروبا. اطلعت في أسفارها علي أعمال فنانين خالدين أمثال: «مايكل أنجلو»، Michelangelo (1475 - 1564) و«ليوناردو دافنشي» Leonardo Da Vinci (1452 - 1519)، فتُقرِّر التخلي عن ممارستها للفن؛ لأنَّها لا يمكن أبدًا أن تكون جيدة بقدر ما تريد. خلال أسفارها، تلتقي بـ«لوري»، وبعد وقت قصير من وفاة أختها «بيث»، يتزوجان. وفي وقتٍ لاحقٍ، «إيمي» تلد ابنتها «إليزابيث» Elizabeth التي ترث جمال والدتها.

اقتبس المسرح رواية «نساء صغيرات» وتمَّ تمثيلها في أربعة فصول علي مسرح «برودواي» Broadway عام 1912.وتمَّ إنتاج العديد من الأفلام السينمائية التي تعالج الرواية كان أوَّلها عام 1918، ثُمَّ نسخة أخري من الرواية عام 1933 بطولة الممثلة الأمريكية «كاثرين هيبورن» (م1907 - 2003) Katharine Hepburn.

وأعقب ذلك فيلم أُنتج في عام 1949 الذي جسَّدت فيه «إليزابيث تايلور» Elizabeth Taylor (1932 - 2011) شخصية «إيمي»، و«مايو أليسون» Mayo Allison (1890-1989) شخصية «جو»، و«جانيت لي» Janet Leigh (1927 -2004) شخصية «ميج»، و«مارجريت أوبراين» Margaret'O Brien (المولودة في 15 يناير1937)» شخصية «بيث»، بينما جسَّد شخصية «لوري» الممثل «بيتر لوفورد» Peter Lawford (1923-1984).

وفي نسخة فيلم 1978 تألقت الممثلة «ميريديث آن باكستر» Meredith Ann Baxter (المولودة في21 يونيو1947) التي جسَّدت شخصية «ميج». وفي عام 1994 ظهر فيلم آخر لرواية «نساء صغيرات» لعبت بطولته «سوزان ساراندون» Susan Sarandon (المولودة في 4 أكتوبر 1946)،

و«وينونا رايدر» Winona Ryder (المولودة في 29 أكتوبر 1971)، و«كيرستن دنست» Kirsten Dunst (المولودة في 30 أبريل عام 1982).

وقد شهدت الرواية عددًا من المُعالجات الموسيقية. ففي عام 1998 تمَّ تكييف هذه الرواية بعملٍ أوبرالي من قِبل المؤلِّف الموسيقي «مارك أداموس» Marc Adamos، وفي 23 يناير عام2005، ظهرت المُعالجة الموسيقية للرواية علي مسرح ولاية «فرجينيا» بمدينة «نيويورك»، وقد وضع موسيقي هذا العمل الفني «جايسون هاولاند» Jason Howland، وتألقت الموسيقية «ساتون فوستر» Sutton Foster، ومغنية البوب «مورين ماكغفرن» Maureen McGovern.

استمرأت «لويزا ألكوت» نجاحها المذهل هذا، فأتبعت رائعتها «نساء صغيرات» بسلسلة روايات مشابهة. كانت كلَّها موجهة إلي أجيال الشباب أساسًا، ومع ذلك كان لها جمهور كبير من الشيوخ والكهول، من هذه الروايات: «فتاة من طراز قديم» (1870)، «رجال صغار»(1871)، «حقيبة العم جو» (1872)، «أبناء العمومة الثمانية»(1875)، «تحت ظلال الزنابق» (1878)، «أبناء جو» (1886م).

•مهدت «لويزا ماي ألكوت» الطريق للروائيين العِظام من بعدها:

لا يمكننا إلَّا أن نعتبر «لويزا» «ماي ألكوت» رائدة في مجال الرواية الأمريكية. وعلي الرُغم من أنَّها لم تكن ذات وعي شديد بضرورات الشكل الفني، ولم تكن لتفرِّق بين فن الرواية وأدب السيرة الذاتية، إلَّا أنَّ البذور الأوَّلي للفنِّ الروائي كانت موجودة في أعمالها مثل: الرسم الدقيق والحيّ للشخصيات، والتصوير المقنع للجوِّ المُحيط بها، والسرد السلس المتدفق للأحداث، والحوار المناسب لتفكير الشخصيَّة وثقافتها.

هذا، ولم تتعمَّد «لويزا» «ماي ألكوت» كتابة الرواية كفنٍّ بقصدٍ ووعي، ولكنَّها اتخذت منها مُجرَّد مهرب من حياتها الشَّاقة الكئيبة.

فكانت بالنسبة لها هواية بكُلِّ ما تحمله من عفويةٍ وتلقائيةٍ غير خاضعة للمعايير الفنيَّة المُتفق عليها. ومع ذلك فهذا لا ينتقص من دورها الريادي في مجال الرواية، فقد مهدَّت الجوَّ والطريق لمَنْ جاء بعدها من الروائيين المتميزين، وأوضحت لهم رواياتها بعض الأساليب الفنيَّة في إدارة الحوار، وخلق الشخصيات، وتطوير السرد.

وفيق صفوت مختار

❊❊❊❊

الفصل الأول

رسالة الشوق والحنين

Message of longing and nostalgia

قالت «جو» متذمِّرةً وهي تضطجع علي البساط.

ـ لا يكون عيد الميلاد عيدًا من دون هدايا.

تنهَّدت «ميج»، وهي تنظر إلي ثوبها الرَّثِّ البالي القديم قائلة:

ـ إنَّه لأمرٌ بغيضٌ ومؤلم أن نكون فقيرات.

أضافت الصَّغيرة «إيمي» بشهقة مكلوم مجروح:

ـ ليس من العدل أن يكون لبعض الفتيات الكثير من الأشياء الجميلة فيما تفتقر الأخريات إلي كُلِّ شيء.

قالت «إليزابيث» قانعة:

ـ أدام الله أبانا وأُمّنا، وأدام بعضنا لبعضٍ.

أشرقت وجوه الفتيات الأربع برهة لهذه الكلمات المُشجِّعة ولكنَّها عادت فاكتأبت عندما قالت «جو» بحزنٍ:

ـ إنَّنا نفتقد أبانا وقد نُحرْمُ رؤيته لوقتٍ طويل..

لم تقل «وقد لا نراه أبدًا».

لكن هذه العبارات دارت في عقل كُلٍّ واحدة منهنَّ وهنّ صامتات تمامًا. ران الصَّمت عليهنَّ لدقيقةٍ، غيَّرت بعدها «ميج» الحديث قائلةً:

• الصغيرات الأربع: ميج، بيث، جو، إيمي •

ـ أنتنَّ تعرفن السَّبب الذي جعل والداتي تقترح عيد الميلاد هذا بدون هدايا. فنحن سنواجه شتاءً قارسًا وينبغي ألَّا نُبذِّر النقود علي المسرَّات والهدايا فيما يواجه رجالنا المكاره والمخاطر في الجيش. علينا أن نُقدِّم تضحياتٍ صغيرةً عن طيب خاطر.

كانت الصَّغيرات يأخذن مصروفًا يوميًا ضئيلًا لا يتعدَّي دولارًا واحدًا. وما كانت أُمُّهنَّ لتطلب إليهنَّ أن يتبرَّعْنَ بهذا النَّزر اليسير الضئيل. فقد كنَّ يُكابِدْن ويجاهدن في أعمالهنَّ من أجل الحصول علي هذه النقود القليلة، مثل تعليم الأولاد المُضجرين أو المُتبرِّمين القلقين من كثرة الغم، أو خدمة سيِّدةٍ عجوزٍ لحوحٍ لا يعجبها العجب، أو غسل الصُّحون والأطباق وترتيب المنزل، أو الذَّهاب إلي المدرسة مع بناتٍ يسخرن من ملابس الفقيرات.

قالت «ميج» مواسيةً، وهي لا تزال تتذكَّر أيّامًا سعيدةً مرَّت بهنَّ:

ـ هل تتمنَّين أن تحصلن علي النقود التي أضاعها والدنا عندما كنَّا صغيرات؟ هل سنكون سعيدات منتشيات وفي أفضل حال يا حبيباتي، إذا خلت الحياة من المنغِّصات أو المضايقات؟

جلست الأخوات الأربعُ يحِكْن شيئًا علي ضوء الشَّفق، فيما كان ثلج شهر نوفمبر (كانون الأوَّل) يتساقط بهدوء، والنَّار تتأجَّج وتتوقَّد داخل الغرفة القديمة والمريحة رغم بساطة أثاثها وفراشها.

كانت هناك لوحة أو اثنتان مُعلَّقتان علي الحائط وكتبٌ تملأ فجوات الجدار، وأزهار عيد الميلاد تتفتح في النَّوافذ، فيما يُخيِّم جوٌّ من السكينة .

❋❋❋

كانت أكبرهنَّ، «مارجريت» (ميج)، في السَّادسة عشرة من عُمْرها، جميلةً ممتلئةً، لها عينان واسعتان وشعر بنّيٌّ ناعمٌ وغزيرٌ، ولها فمٌ عذبٌ، ويدان بيضاوان تزهو بهما.

وكانت «جوزفين» (جو)، ابنة الخامسة عشرة، طويلةً، نحيلةً، بنِّيَّة الشَّعر يُذكِّرنا شكلهما بالمُهر لطول أطرفها. لها فمٌ صارمٌ وأنفٌ مضحكٌ، وعينان رماديَّتان حادَّتان. وكان شعرها الطَّويل الغزير أجمل ما فيها، تربطه عادة بشبكةٍ. وكان لها كتفان مستديرتان، ويدان وقدمان كِبارٌ كانت تنظر باستخفافٍ إلي ملابسها، وكان منظرها غير مريحٍ كفتاةٍ تتحوَّل بسرعةٍ، كارهةً وبلا إرادة، إلي سنِّ النَّضج.

أما «إليزابيث»، أو (بيث) كما يدعوها الجميع، فهي في الثَّالثة عشرة من عُمْرها، ذاتُ شعر ورديٍّ ناعم وعينين مشرقتين. وكانت تتحلَّي بطبع خجول وصوت حَيِيٍّ محتشم، وتعبير رقيق. وكانوا يسمُّونها تحبُّبًا وملاطفةً بـ«ماوس» (الفأرة)، أمّا والدُها فكان يدعوها، الهادئة الصَّغيرة، وهي تسميةٌ كانت تُناسِبُها فِعْلًا.

أمَّا صغري الشقيقات، «كورتيس» (إيمي)، فقد كانت تعتبر نفسها الأكثر أهميَّة من بينهنَّ. كانت ذات بشرة بيضاء كالثَّلج، وعينين زرقاوين، وشعر أصفر مُجعَّد يُلامس كتفيها. وكانت تنظر إلي نفسها علي أنَّها شابةٌ تعي ما تفعل .

❊❊❊

دقّت السّاعةُ السَّادسة، وراحت كُلُّ واحدةٍ منهنَّ تقوم بعمل ما، فأمُّهنَّ علي وشك المجئ، وعليهنَّ أن يرحِّبن بها ترحيبًا حارًا.

قالت «جو»:

ـ ينبغي أن تحصل أمّي على زوجٍ جديدٍ من الجوارب.

وقالت «بيث» :

ـ عليَّ أن أعطيها جُزءًا من مصروفي.

تأثَّرت «إيمي» قائلةً:

ـ كلَّا. أنا التي سأعطيها...

قالت «ميج» :

ـ أنا الكبرى.

فقاطعتها «جو» قائلةً:

ـ أنا رجل العائلة الآن! أبى مسافر، وقد أوصاني قبل رحيله أن اعتني بوالداتي.

قالت «بيث» :

•رسالة الأب البعيد في عيد الميلاد•

ـ لا ينبغي أن نختلف في هذه المناسبة السَّعيدة. فكُلُّ واحدةٍ منَّا ينبغي أن تمنحها شيئًا في عيد الميلاد.

وراحت كُلُّ واحدة منهنَّ تُعلن عن هدَّيتها:

..هذه قفّازٌ، وأخرى حذاء، والثالثة منديلٌ، والرابعة زجاجة عطر. واتَّفقن على أن يُفاجِئْن أمَّهنّ بما سيُقدِّمن لها.

دخلت الأمُّ وكانت سيِّدةً طويلة القامة، نبيلة الملامح.

قالت الأمُّ بحبور وسعادة:

ـ كم أنا سعيدةٌ لمرحكنّ يا بناتي الأعزاء..كيف حالكنَّ اليوم؟

وبعد أن تفقَّدتهنَّ واحدةً واحدة، قالت:

ـ هيّا، لدينا الكثير لنفعله اليوم.

وما إنْ جلست علي كرسيِّها لتستريح حتَّى راحت الفتيات يتنقَّلن ما بين الردهة والمطبخ لتحضير العشاء. وعندما اجتمعن حول المائدة قالت الأمُّ ببهجةٍ:

ـ عندي لكنَّ مفاجأةٌ بعد العشاء.

وتعالت صيحات الفتيات يُعبِّرن عن فرحهنَّ:

ـ رسالةٌ من والدِنا!

قالت الأمُّ:

ـ نعم رسالةٌ طويلة رائعة. انَّه بخير، وسيُمضي فصل الشتاء البارد علي ما يرام. وهو يهديكُنَّ أطيب تمنِّياته بعيد الميلاد.

سالت «بيث» :

ـ متي سيعود إلينا يا أمّاه؟

ـ لن تطول غيبته كثيرًا يا حبيباتي .سيبقي ليؤدِّي واجبه بأمانةٍ، ولن نطلب منه أن يحضر قبل فوات الأوان.

ثُمَّ استطردت تقول:

ـ والآن إليكنَّ الرسالة.

وتحلَّقت الفتيات حولها بلهفةٍ.

كانت رسالةً تحمل البهجة والأمل، وتتحدَّث بوصفٍ حيٍّ نابض عن حياته في المعسكر. وبقلبٍ مفعمٍ بالحُبِّ يخاطب زوجته قائلًا:

«امنحيهنَّ خالص حُبِّي وقبلاتي. قولي لهنَّ إنَّني أفكِّر فيهنَّ في النَّهار وأُصلِّي من أجلهنَّ في الليل، وأجد راحتي الخالصة بمحبَّتهنَّ في كُلِّ الأوقات. إنَّ فترة سنة لهي طويلة جدًّا حتَّى أراهُنَّ وذكِّريهنَّ أنَّه خلال الانتظار، يمكننا جميعًا أن نعمل، وعندما أعود إليكنَّ سأكون أكثر فخرًا ببناتي الصَّغيرات».

وفيما كنَّ يبكين شوقًا ولهفةً إلي رؤيته سالمًا، وهنَّ يسمعن الرسالة، تعاهدن جميعًا علي أن يكُنَّ عند حسن ظنِّ أبيهنَّ. أمَّا الأمُّ الرءوم الحنون فقد راحت تحنو عليهنَّ وتُذكِّرهن بقصَصٍ جميلةٍ من ذكريات طفولتهنَّ.

❋❋❋❋

الفصل الثاني

هدايا عيد الميلاد

birthday presents

كانت «جو» أوَّل مَنْ استيقظ صبيحة عيد الميلاد. وسرعان ما صحَتْ أخواتُها الأخريات ليُفاجَأن بهدايا أمِّهنَّ: لكُلِّ واحدةٍ منهنَّ كتابٌ مختلفٌ في موضوعه ولون غلافه. ويُهرعن إلي الأسفل فلا يجدنها.

وتخبرهنَّ «حنَّة» ربيبة المنزل التي كانت بمثابة صديقةٍ لهنَّ أكثر ممَّا هي خادمةٌ، أنَّ أمَّهنَّ خرجت لإحضار بعض الأشياء وستعود حالًا. وبينما راحت كُلُّ واحدة منهنَّ تتفقَّد هدَّيتها لأمِّها عادت الأمّ.

صِحْنَ بصوتٍ واحد:

ـ عيد ميلاد سعيدٌ يا أمّاه كُلُّ عامٍ وأنتِ بخير. نشكرُ لكِ هديَّتكِ. سنقرأ فيها كُلِّ يوم.

قالت الأمُّ:

ـ عيد ميلاد سعيد يا صغيراتي! أشكرُ لكنَّ اهتمامكنَّ بذلك. ولكنَّني أريد أن أقول شيئًا: في مكانٍ غير بعيدٍ عن هنا تقبع امرأةٌ مع طفلها الرَّضيع. عندها ستَّة أطفال يتزاحمون في سريرٍ واحدٍ كي لا يتجمَّدوا من البرد، فالبيت

يفتقر إلي مدفأةٍ، ولا يجدون طعامًا يأكلونه. فهل لكنَّ يا بناتي أن تفعلن خيرًا وترسلن إلي هذه الأسرة إفطارنا في عيد الميلاد هذا؟

لاذت الفتيات بالصَّمت، فقد كُنَّ جميعهنَّ جائعات. أخيرًا صاحت «جو»:

ـ إنَّني سعيدةٌ لأنَّكِ حضرتِ يا أمّي قبل أن نبدأ إفطارنا.

• الأسرة في انتظار تناول الإفطار •

وراحت كُلُّ واحدةٍ منهنَّ تعلن عمَّا ستحمله إلي تلك الأسرة الفقيرة من الطَّعام. قالت السَّيِّدة «مارش» وقد ارتسمت علي وجهها علامات الرِّضا:

ـ كنت أعلم أنَّكُنَّ ستفعلن ذلك. فلنذهب جميعًا، وعندما نعود سيكون لدينا خبزٌ وحليبٌ للإفطار، نرجئهما إلي موعد الغداء.

وسار الجميع إلي تلك الأسرة الفقيرة التي كانت تسكن في غرفةٍ بائسةٍ ذات نوافذ محطمة مكسورة. وفي وسط هذا المكان البارد أمٌّ مريضةٌ في حضنها رضيعٌ ومجموعةٌ من الأطفال الجياع.

صاحت المرأة الفقيرة بدموع الفرح وهي تري السَّيِّدة «مارش» وبناتها:

ـ آه، ملائكة الرَّحمة هبطت علينا!

وسرعان ما ساد هذا المكان البائس سعادةٌ غامرةٌ، حيث راحت كُلُّ واحدة من الفتيات تقوم بعمل يُدخل الدَّفء والحنان إلي قلب هذه الأسرة

الفقيرة. ولم يشعرن في يوم من الأيّام بمثل تلك السَّعادة، رغم أنَّهنَّ لم يذقن شيئًا من الطَّعام الذي حملْنَه.

قالت «ميج» بعد أن عدن إلي المنزل:

ـ ما أجمل أن نُؤْثِر جيراننا علي أنفسنا.

وراحت الفتيات يجمعن هداياهنَّ لمفاجأة أمِّهن.

وعندما دخلت الأمّ، تعالت صيحاتهنَّ بأطيب التمنِّيات.

كانت الأمُّ مأخوذةً، بسَّعادةٍ غامرةٍ لما تُقدمه لها بناتها من هدايا، وبما يقمن به من تحضيراتٍ احتفالًا بعيد الميلاد. فقد استعضن عن الذَّهاب إلي المسرح بتحضير مسرحية «لغة السِّحر»، وقمن بأدائها وتمثيلها بعدما وزَّعن الأدوار فيما بينهنَّ.

وحان وقت العشاء. كان العشاء مفاجئًا! لقد كانت المائدة عامرة بأصناف الحلوى والمعجَّنات والفواكه والورود.

قالت إحداهنَّ بدهشةٍ:

ـ هل هذا سحرٌ؟

ووضعت الأمُّ حدًّا لدهشتهنَّ وتساؤلاتهنَّ:

ـ إنَّها هديَّة العجوز «لورنس»! لقد أخبرتْ «حنَّة» أحد خَدمِهِ عن حفلة الإفطار هذا الصباح، وهذا ما سرَّه كثيرًا. وقد أرسل لي ملاحظةً اليوم يقول إنَّه يودُّ أن يُعبِّر عن مشاعره نحو بناتي ببعض الهدايا احتفالًا بمناسبة عيد الميلاد.

أبدت الفتيات إعجابهنَّ بالهدايا. وقالت «جو» :

ـ علينا أن نتعرَّف إلي هذا الرَّجل ذات يوم.

ولم تنس الفتياتُ والدهنَّ في ذلك اليوم. فقد همست «بيث» برقَّةٍ:

ـ بوُدِّي لو أبعث بهذه الباقة الجميلة من الورود إلي والدنا. أخشي ألَّا تتاح له فرصةٌ للاحتفال بالعيد!

❊❊❊❊

الفصل الثالث

سعادة غامرة..رغم كل المنغصات

Overjoyed, despite all the anxieties

صاحت «ميج» وهي تلوِّحُ ببطاقة الدَّعوة مبتهجةً:

ـ دعوةٌ من السَّيِّدة «جاردنر» لمساء الغد بمناسبة رأس السنة الجديدة. ماما تريدنا أن نذهب، فماذا نلبس غدًا؟

قالت «جو» :

ـ ما معني هذا السؤال وأنتِ تعرفين أنْ ليس لدينا إلَّا ثوب البوبلين[1]؟

تنهَّدت «ميج»، وقالت:

ـ آه لو كان عندي ثوبٌ من الحرير!

أجابتها «جو» :

ـ فستانكِ ما زال بحالةٍ جيِّدةٍ، وهو يبدو كالحرير. أمَّا فستاني أنا فمهترئٌ.

وراحت الأختان تتجادلان بشيءٍ من المرارة حول ملابسهما التي لا تبدو لائقةً تمامًا. ولكنَّهما عزمتا أخيرًا علي مداراة الأمر والذهاب إلي الحفلة الرَّاقصة.

(1) قماش البوبلين Poplin، هو قماش قوي من أي نوع خيط أو خامة، وله خطوط عريضة عادة تعُطي شكلًا مقلَّمًا لسطح القماش. والبوبلين يستعمل في صناعة الملابس وتنجيد المفروشات. والقمصان المصنَّعة من هذه الأقمشة سهلة الكي ولا تتجعَّد بسهولةٍ. (المُعد).

وفيما قامت الأختان الصَّغيرتان بدور الخادمتين كانت الأختان الكُبريان تستعدَّان للحفلة. وفي النهاية، بدتا مهندمتين علي الرغم من بساطة ثوبيهما: «ميج» بثوبها الفضّيِّ وشبكة شعرها المخمليَّة الزرقاء، و «جو» بثوبها الأحمر الداكن وياقتِهِ الصُّلبة. تمنَّت لهما أمُّهما قضاء وقتٍ طيِّبٍ، وقالت لهما:

ـ لا تتأخَّرا عن السَّاعة الحادية عشرة عندما أرسل إليكما «حنَّة» .

مشت الفتاتان علي استحياء وتهيُّب، فهما نادرًا ما تحضران حفلاتٍ أو مناسباتٍ كهذه. كان حضور هذه الحفلة حدثًا مهمًا بالنسبة إليهما.

وعند الباب حَيَّتهما السَّيِّدة «جاردنر» برقَّةٍ واقتادتهما إلي كُبري بناتها الستِّ. كانت «ميج» تعرف «سالي»، واستطاعت أن تندمج معها بسرعة.

أمَّا «جو» التي لم تكُنْ تهتمُّ كثيرًا بالفتيات، فقد شعرت بشيءٍ من الوحشة وهي تقف وظهرها إلي الحائط. وتمنَّت لو تنضمُّ إلي مجموعةٍ من الفتْية المرحين الذين كانوا يتحدَّثون عن التزلُّج في الجانب الآخر من الغرفة، وهو ما كان إحدى هواياتها. وعندما أفصحت لأختها عن رغبتها في الانضمام إليهم، لم تلق منها إلَّا نظرة امتعاض وتحذير. وانفضَّ الجميع من حولها من دون أن يكلِّمها أحد. واستمرَّت تحدِّق في مَنْ حولها إلي أن بدأ الرَّقص.

وسرعان ما دُعيت «ميج» إلي الرَّقص فراحت ترقص غير عابئة بما يُسبِّبه لها حذاؤها الضيِّق من ألمٍ.

أمَّا «جو» فقد رأت فتي ذا شعرٍ أحمر يقترب منها، فتوارت منه إلي ملاذ آمن، ولكنَّها التقت في ذاك المكان صبيًّا آخر وجهًا لوجه. إنَّه ابن عائلة «لورنس» .

قالت «جو» متلعثمةً:

ـ لم أكن أعرف أنَّ أحدًا هنا.

وحاولت الانسحاب. ضحك الفتى وقال برقَّةٍ وعذوبةٍ:

ـ يمكنكِ البقاءُ إذا شئتِ .

وسرعان ما أخذا يتجاذبان أطراف الحديث ويتضاحكان. وعرَّف الفتى نفسه باسم «لوري لورنس» لأنَّه لا يُحبُّ اسمه الحقيقيَّ (تيودور)، فيما عرَّفت «جوزفين» نفسها باسم «جو» .

وراح «لوري» يحدِّثُها عن نفسه، وعن السنوات التي أمضاها في الخارج. وشجَّعته أسئلة «جو» على الاسترسال في الحديث عن ذكرياته في سويسرا. واستطرد كلاهما في الحديث من غير تكلُّفٍ، وقد شعرا وكأنَّ أحدهما يعرف الآخر منذ زمنٍ بعيد .

أُعجبتْ «جو» بالفتى وعزمت على أن تحدِّث أخوتها عنه. إنهنَّ محروماتٌ من الإخوة الذكور.

راحت تتأمَّله بإمعان وهي تجاذبه أطراف الحديث وتسأله عن دراسته وعن مشاريعه المستقبليَّة. لحظاتٌ قليلةٌ وعزفت الموسيقى لحن رقصة

«البولكا»[2].وبدت «جو» متردِّدة ومرتبكة في البداية. ولكن «لوري» استطاع إقناعها وراح يُعلِّمها خطوات الرقصة المرحة.

كانت «جو» في منتهى السَّعادة وهي ترقص مع «لوري» وقد أخذتها الأحلام بعيدًا بعيدًا.

جلسا على السُّلَّم ليلتقطا أنفاسهما عندما توقَّفت الموسيقى.

اقتربت «ميج» فجأةً ودلفتْ إلى غرفةٍ جانبيَّةٍ، فلحقت بها «جو» .جلستْ «ميج» على الأريكة شاحبةً وهي تتلوَّى من الألم. لقد التوى كاحلها بسبب حذائها الضيِّق الذي انكسر كعبُهُ. وكانت قلقةً تُفكِّر في طريقةٍ تعود بها إلى البيت!

اقترحت عليها «جو» أن يأخذا عربةً، ولكنَّ «ميج» رفضت قائلةً إنَّ العربة تُكلِّف كثيرًا، وهي تفضِّل أن تستريح حتى تأتي «حنَّة» .

حان وقت العشاء..واتَّجه المدعوُّون إلى المائدة.

قالت «جو» لأختها إنَّها ستبقي معها. ولكنَّ «ميج» أصرَّت علي أختها أن تتركها وتذهب إلي غرفة الطَّعام، لأنَّها تريد أن تستريح بعض الوقت. وطلبت منها فنجانًا من القهوة. ولم تكد «جو» تحصل علي القهوة حتي اندلقتْ علي فستانها. فانزعجت لما حدث انزعاجًا شديدًا، ولكنَّ صوتًا رقيقًا قال لها:

(2) البولكا Polka:رقصةٌ أصلها من بوهيميا. أُطلقت في بادئ الأمر على رقصة بوهيمية ريفية كانت متداولة في القرى وفي المنتديات الشعبيَّة. وفي عام 1840 أخذت رقصة«البولكا» طريقها نحو المسرح، وانتشرت في صالونات النبلاء والأشراف. تتميز هذه الرقصة بطابعها الخفيف المرح.(المُعد).

ـ هل أستطيع المساعدة؟

قالت «جو» مضطربةً:

ـ كنت أحاول أن أحضر شيئًا لأختي «ميج»، ولكنَّ أحدهم دفعني.. فانظر ما حصل!!

قال «لوري» :

ـ يا له من أمرٍ مؤسف. هل أستطيع أن أحمل هذا إلي أختكِ؟

قالت «جو» :

ـ شكرًا لك. دعنا نتَّجه إلي ها.

•ميج، وقد انكسر كعب حذائها في الحفلة •

أمضي الجميع وقتًا طيبًا.

وعندما جاءت «حنَّة»، نهضت «ميج» مسرعةً وقد فاتها ما حصل لقدمِها، ولكنَّها اضطرت إلي أن تتَّكئ علي كتف أختها مُبديةً بعض الألم.

همست «ميج» في أذن أختها توصيها بألَّا تفصح عن شيءٍ، وقالت متصنِّعةً:

ـ لا شيء مُجرَّدُ التواء بسيط في قدمي!

نزلت «جو» إلى الطَّابق السفليِّ تبحث عن عربهٍ، وفيما هي تبحث عمَّن يستطيع مساعدتها، اقترب منها «لوري» وعرض عليها أن يوصلهنَّ بعربة جدِّة التي كانت قد وصلت توًّا.

ارتاحت «جو» لهذا الاقتراح ولكنَّها تردَّدت في قبوله، وقالت لـ«لوري»:

ـ أليس الوقت مبكرًا لذهابك؟

أجابها «لوري» :

ـ أنا أذهب باكرًا دومًا. دعيني أوصلكنَّ إلى البيت. فها هي السماء تمطر.

قبلت «جو» بامتنان عرض «لوري» بسبب وضع أختها السيِّئ، واتَّجهوا جميعًا بالعربة الفاخرة.

قالت «جو» :

ـ لقد أمضينا وقتًا رائعًا. أليس كذلك؟

وراحت الفتاتان تتحدَّثان عن انطباعاتهما السَّارة عن الحفلة وعمَّن تعرَّفتا إليهم.

وما إن انتهى حديثهما الشيِّق، حتى كان الركْبُ قد اقترب من البيت. وما إنْ دلفن إلى البيت حتَّى قالت الأمُّ بلهفةٍ:

ـ أخبراني عن الحفلة.

وراحت الفتاتان تتحدَّثان عن سعادتهما وسرورهما على الرغم من ملابسهما البسيطة وحذاء «ميج» الضيِّق وما حصل لقدمِها!

الفصل الرابع

قصص وحكايات
Stories and Tales

قالت «ميج» متنهِّدةً:

ـ ما أصعب أن نحمل أشياءنا ونمضي في الصباح الذي يلي الحفلة.

أجابتها «جو» :

ـ أتمنى لو أنَّ كُلَّ الأوقات عيد ميلاد أو أعياد رأس السنة!

وقالت «ميج» :

ـ من الجميل أن نذهب إلى الحفلات ونعود إلى المنزل بحافلةٍ، ولا نعمل. أنا أحبُّ الرفاهية.

بدت كُلٌّ واحدةٍ منهنَّ منحرفة المِزاج قليلًا ذلك الصباح. ورُحْن يتشاغلن بأشياء شتَّى. وساده جو مُّن التَّوتُّر دعا السَّيِّدة «مارش» إلى أن تصيح بهنَّ قائلةً:

ـ اصمتْن يا بنات. عليَّ أن أبعث بهذه الرسالة في بريد الصباح.

قالت «جو» تداعب أختها:

ـ هل أُخذتِ وراقكِ الجوّ الباذخ، والترف الشديد هذا؟ انتبهي إلى أنَّه لا يمكن أن تظلِّي في أحضان العزِّ دومًا. أيتها الفقيرة العزيزة! عليكِ أن تنتظري حتَّى آخذ فرصتي من الحياة، وعندئذ ستنالين كُلَّ أسباب الرَّفاهية.

ضحكت «ميج» وقالت:

ـ كم أنتِ مضحكة.

وافترقتا كُلٌّ في سبيلها.

عندما فقد السَّيِّد «مارش» أملاكه كي يحاول مساعدة صديق ذي حظٍّ عاثرٍ، توسَّلت الفتاتان الكُبْريان أن يسمح لهما بممارسه عملٍ ما كي تُساعدا نفسيهما. وقد سمح لهما أبوهما بذلك وانصرفتا إلى العمل بهمَّةٍ ونشاط.

وجدت «مارجريت» فرصة للعمل كمُعلِّمه حضانةٍ، وشعرت بأنَّها مكتفيةٌ براتبها الضئيل. كان الفقر بالنسبة إليها أصعب من أن تتحمَّله كالآخرين، فهي لا تزال تتذكَّر ما كانت فيه من عزٍّ وحياةٍ حافلةٍ بالترف والمسرَّات. قد حاولت أن تكون قانعة، ولكن من الطبيعيّ بالنسبة إلى فتاةٍ شابَّة، أن تتطلَّع إلى الأشياء الجميلة والأصدقاء المريحين، والحياة السَّعيدة. كانت «ميج» نادرة الشكوى، ولكنَّ شعورًا بالظُّلم كان يؤرِّقُها أحيانًا.

أما «جو» فقد كان عليها أن تعتني بالعمَّة «مارش» العجوز الكسيحة التي تحتاج إلى مَنْ يرعاها.

عرضت العجوز العاقر أن تتبنَّى إحدى الفتيات، وكانت شديدة الحزن لرفض طلبها. وعندما التقت بـ«جو» استلطفتها ورقَّ لها قلبُها وعرضت عليها أن تكون مرافقةً لها. لم يرقْ هذا العمل كثيرًا لـ«جو» في البداية،

ولكنَّها قبلت به على مضضٍ لعدم وجود بديلٍ آخر. وكان أكثر ما يغريها بالعمل، وجود مكتبهٍ ملئي بالكتب الرائعة في بيت تلك السَّيِّدة العجوز، تنهلُ منها كُلَّما أُتيحت لها الفرصة.

كانت «جو» طموحةً تتطلَّع إلى القيام بعملٍ رائع، ولكنَّها كانت تشعر بأنَّها لا تستطيع أن تنال كُلَّ ما تشتهى.

أمَّا «بيث» فكانت تخجل من الذهاب إلى المدرسة. لقد حاولت وعانت الكثير ولم تعد تستطيع المتابعة. وأخذ والدها على عاتقه أن يساعدها في دروسها في المنزل. وعندما رحل تابعت «بيث» دروسها باجتهادٍ معتمدةً على نفسها، كما كانت تساعد «حنَّة» في تنظيف المنزل. كان لها متاعبها كالأخريات. كانت تحبُّ الموسيقى وتحاول جاهدةً أن تتعلَّمها. كانت تحاول الغناء والعزف، وملؤها الأمل في إتقان الموسيقى ذات يوم.

أمَّا «إيمي» الصَّغيرة، فلم يكن يشغلها سوى أنفها المشوَّه، المسطَّح الذي تعرَّض لحادثةٍ عندما أوقعتها أختُها «جو» دون أن تقصد وهى صغيرة. إنَّها فتاةٌ موهوبةٌ شغوفةٌ بالرَّسم. وكانت شقيقاتُها يدعونها «رافاييل الصَّغير»[3].

كانت «ميج» محل ثقة «إيمي»، في حين كانت «جو» محل ثقة «بيث» رغم اختلاف الطِّباع.

(3) نسبة إلي الفنان الإيطالي رافاييل سانزيو Raffaello Sanzio، المولود في السَّادس من أبريل 1483، والمتوفى في عام 1520 . وهو رسّام ينتمي لعصر النهضة. تولى منصب رئيس المهندسين والمشرف على المباني لدى بلاط الباباوات، «يوليوس» الثاني، ثُمَّ «ليون» العاشر من بعده.(المُعد).

قالت «ميج» بشيءٍ من الضَّجر، وهنَّ جالساتٌ في المساء معًا يَحِكْن الملابس:

ـ أما عند إحداكنَّ ما ترويه لنا؟ لقد كان يومًا مضجرًا مملًا وأنا أتلهَّف على شيءٍ من التسلية.

انبرت «جو» تحكى ما جرى لها في هذا اليوم مع مخدومتها عندما ضبطتها وهى تقرأ في كتاب «راعى أبرشية ويكفيلد»[4] وكيف طلبتْ إليها أن تستمرَّ في القراءة وتقرأ لها رغم أنَّها لم تكن تفهم الكثير ممَّا تسمع.

•الصغيرات..وقد اجتمعن للتسلية •

وراحت «ميج» تقصُّ حكايةً أخرى جرت معها في عملها ذلك النَّهار. وأدلت الصَّغيرة «إيمي» بدلوها وراحت تحكى واقعةً حدثت لها في المدرسة، وكيف تعرَّضتْ زميلةٌ لها لعقوبةٍ شديدةٍ جَرَّاء ذنبٍ صغير اقترفته.

وجاء دور الصَّغيرة «بيث» لتدلى بدلوها. وروت لأخواتها واقعةً شاهدتها ذلك الصباح. قالت «بيث» :

ـ عندما ذهبتُ لأحضر بعض المحار لـ«حنَّة»، كان السَّيِّد «لورانس» في محلِّ بيع السَّمك. لم يكن يراني لأنَّني كنت خلف برميلٍ، وكان مشغولًا بالحديث مع السمَّاك. دخلت امرأةٌ فقيرةٌ بأسمالٍ باليه وسألت السمَّاك أن تنظّف له محلَّه مقابل القليل من السَّمك لأطفالها الجياع. رفض السمَّاك

(4) ويكفيلد Wakefield، هي مدينة وعاصمة مقاطعة غرب يوركشير بإنجلترا. (المُعد).

طلبها بلهجةٍ جافَّةٍ. وهمَّت بالخروج وقد ارتسم على وجهها الحزن وعلامات الجوع. نظر السَّيِّد «لورانس» إلى سمكةٍ كبيرةٍ وحملها وناولها إيَّاها. كانت سعادتها لا توصف إزاء هذه المفاجأة. احتضنت السَّمكة بسَّعادةٍ وخرجت مسرعةً وهى تدعو للسَّيِّد «لورانس» بالخير والبركة.

ضحكت الفتيات بعد أن سمعن قصَّة «بيث» وطلبن من أمِّهنَّ أن تقصَّ عليهنَّ شيئًا. قصَّت عليهنَّ الأمُّ كيف كانت تفكِّرُ في أبيهنَّ هذا الصباح وهى ترتق بعض الثِّياب، وكيف دخل عليها رجلٌ عجوزٌ ارتسمت على وجهه علامات الفقر والإعياء يطلب بعض الملابس.

وحكت لهنَّ الأمُّ ما رواه لها ذلك الرجل العجوز، وكيف أنَّه قدَّم أولاده الشَّباب الأربعة إلى الجيش للدفاع عن الوطن، فمات منهم اثنان وسُجن ثالثٌ، ولم يبق له إلَّا ولدٌ واحدٌ، ومع هذا، فقد كان سعيدًا لما قدَّمه لوطنه. قالت الأمُّ:

ـ لقد شعرت بالخجل من نفسي. لقد أعطيت الوطن رجلًا واحدًا واعتقدت أنَّ هذا كثيرٌ جدًّا، في حين أنَّه قدَّم للوطن أربعةً من دون مُقابل أو مِنَّة.

❊❊❊❊

الفصل الخامس

مغامرة داخل القصر

Adventure inside the palace

سألت «ميج» شقيقتها «جو» وهى تراها تدبُّ بحذائها المطَّاطيِّ وقد وضعت قلنسوةً على رأسها، وحَمَلت مكْنسةً طويلةً بيدٍ ومِجْرفةً باليد الأخرى:

ـ ماذا بربِّك تنوين أن تفعلي يا «جو» ؟

وفيما انصرفت «ميج» إلى القراءة، راحت «جو» تحفر ممرَّاتٍ بهمَّةٍ ونشاطٍ. وسرعان ما حفرت ممرًّا حول الحديقة بكاملها يفصل ما بين منزل «مارش»، ومنزل السَّيِّد «لورانس» .

وفيما كان المنزل الأوَّل يبدو شاحب المظهر، كان الآخرُ عبارةً عن دارٍ غنَّاء تنطق بالعزِّ والثراء والرفاهية. ولكم ودَّت «جو» أن تقتحم هذا العالم السحريَّ وتتعرَّف إلى ابن «لورانس»، فهي تتوق إلى رؤيته مجدَّدًا منذ أن التقته في الحفلة، وقد خطَّطت بكُلِّ الوسائل كي يكونا صديقين.

افتقدته بعدما ظلَّ فترةً لا يظهر، واعتقدتْ أنَّه ربما رحل، ولكنَّها رأت وجهه ذات مرَّةٍ يطلُّ من النافذة. كانت نظراته تنمُّ عن حزن.

قالت «جو» في نفسها: «ذاك الفتى يفتقر إلى المجتمع والمرح. إنَّ جدَّه لا يعرف مصلحتهُ ويعزله وحيدًا. إنَّه بحاجةٍ إلى شابٍّ مليءٍ بالحيويَّة. لكم أودُّ أن أصعد إلى السَّيِّد المبجَّل وأخبره بذلك»!

أسعدت هذه الفكرة «جو» التي كانت تحبُّ القيام بأعمالٍ جريئة. ولم تكن الوسيلة تعوزها، واستطاعت أن تلتقي «لوري» بالفعل.

بدا «لوري» شاحبًا فسألته «جو» عن صحَّته.

أجابها بأنَّه أفضل الآن بعد وعكة بردٍ أصابته وأقعدته أسبوعًا في البيت. وجرى بينهما حديث ودّيٌّ وتواعدا على اللِّقاء، بعد أن تستأذن «جو» والدتها.

وسرعان ما عادت «جو» ودلفتْ إلى القصر وقالت لـ «لوري» بمرحٍ:

ـ ها أنذا أفي بوعدي. أمّي تبعث إليك بتحيَّتها وتتمنَّى أن أفعل شيئًا من أجلك، و «ميج» أرسلت لك بعض الحلوى، في حين أصرَّت «بيث» على أن أحضر قططها الصَّغيرة لعلَّها تدخل السرور على قلبك.

وراحت تعيد ترتيب الغرفة وتنسق أثاثها وهى تحادث «لوري». واستطاعت في لحظاتٍ أن تُضفى على المكان جوًّا مختلفًا.

كان «لوري» سعيدًا بما تفعله «جو». وجلسًا على مقعدٍ وثيرٍ وراحا يتجاذبان أطراف الحديث.

كان «لوري» مريضًا ووحيدًا، وقد أحسَّ بسعادةٍ كبيرةٍ لما غمرته به من حنان كان يفتقر إليه. وطلبت إليه «جو» أن يأتي لزيارتهنَّ. وقالت له مشجِّعةً:

ـ إنَّ أمِّي إنسانةٌ رائعةٌ وسوف تغمرك بالحبِّ والحنان. سنمضى أوقاتًا ممتعةً معًا.

ثُمَّ ما لبثتْ أن تساءلت:

ـ ألَّا يسمح لك جدُّك بالذهاب؟

ـ أعتقد أنَّه سيسمح لي إذا ما طلبتْ منه أمُّك ذلك. إنَّه كريمٌ جدًّا وهو يسمح لي أن أفعل ما أريد، لكنَّه يخشى أن أزعج الغرباء.

قالت «جو» :

ـ ولكنَّنا لسنا غرباء، نحن جيرانٌ..ونريد أن نتعرَّف إليك.

وشكا إليها «لوري» جوَّ الوحدة الذي يعيش فيه في قَصْر جدَّه. فحثَّته على الخروج من هذه العزلة وزيارة أماكن كثيرة. وقالت له مشجِّعة:

ـ سيكون لك أصدقاءُ كثيرون. لا بأس أن تكون خجولًا الآن فهذا أمرٌ لن يطول. وراحا يتحدَّثان في أمور شتَّى، حتى وصلا إلى الحديث عن الكتب حيث اكتشفا أنَّ هواية القراءة والمطالعة تجمع بينهما. واقترح «لوري» أن يريها مكتبه جدَّه.

كانت غرفه المكتبة مملوءةً بالكتب وشتَّى أنواع التُّحف الغريبة. قالت «جو» وهى تغوص في كرسيٍّ من المخمل متنهِّدةً:

ـ يا للثَّراء! أظُنُّ أنَّك أسعدُ فتىً في العالم يا «لوري» .

ويُقرع الجرس، وتنهض «جو» فجأةً بشيءٍ من الهيبة، وتقول:

ـ إنَّه جدُّك!

يشعر «لوري» بتهيُّبها فيحاول أن يهوِّن الأمر عليها. ويدخل الجدُّ من دون أن تنتبه إليه «جو»، التي راحت تعبِّر عن مشاعرها إزاء الجدِّ بعد أن حدَّقت طويلًا في صوره له على الحائط. كان تعليقها جريئًا. وعندما تنبَّهت إلى وجوده فجأةً، شعرت بالخجل وباضطرابٍ شديدٍ. وودَّت لو تستطيع الهروب. ولكنَّ نظرات الجدِّ الحانية سرعان ما بدَّدت الكثير من اضطرابها.

قال لها الجدِّ بعد لحظاتٍ من الصَّمت:

ـ إذًا فأنتِ لا تخافين منِّى، أليس كذلك؟

ـ ليس كثيرًا يا سيِّدي.

ـ وأنتِ لا ترينني وسيمًا كجدَّكِ؟

ـ ليس تمامًا يا سيِّدي.

ـ ومع هذا فأنتِ تحبِّينني؟

ـ نعم أحبُّك يا سيِّدي.

أُعْجِبَ الرَّجل النَّبيل بالجواب فضحك ومدَّ يده مصافحًا. وقال وهو يتفحَّص وجْهها ويومئ برأسه:

ـ لديكِ رُوحُ جدَّكِ، وان كان وجهُكِ لا يشبهه. كان رجلًا رائعًا وعزيزًا عليَّ. كان شجاعًا وأمينًا وكنتُ فخورًا بصداقته.

شعرت «جو» بالراحة عندئذٍ، وقالت:

ـ شكرًا يا سيِّدي.

وراح الجدُّ يحادثُها برقَّةٍ ويسألها عن حال أمِّها، وقال إنَّه سيزورها ذات يوم. وقُرع الجرس معلنًا وقت شرب الشَّاي.

فقال الجدُّ:

ـ هيَّا لنحتفل بعلاقة حُسْن الجوار.

ومدَّ ذراعه ليصطحبها إلى قاعه تناول الشَّاي على طريقه النُّبلاء التقليدية.

لم يَفُت الجدُّ وهو يحتسى الشَّاي أن يراقب الفتى والفتاه وما طرأ على حفيده من تغيُّرات. لقد صار وجهه ينبض بالحياة والنُّور، وملامحه تتدفَّق بالحيويَّة، وضحكته تشعُّ بالمرح.

وبعد تناول الشَّاي اصطحب «لوري» صديقته «جو» إلى المستنبت الزجاجيِّ الذي بدا لها شيئًا أشبه بالسِّحر. وفيما كانا يسيران وسط الأشجار والنباتات التي تخلب الألباب والعقول، كان «لوري» يقطف بعض الورود والأزهار حتَّى تجمَّعت في باقةٍ قدَّمها إليها قائلًا:

ـ أرجو أن تعطى هذه لأمِّكِ.

ودخلا إلى قاعه الاستقبال حيث كان السَّيِّد «لورنس» يجلس عند المدفأة. ولفت نظر «جو»بيانو ضخمٌ كان ينتصب في الغرفة، وسألت ملتفتةً إلى «لوري» :

ـ هل تعزف؟

وألحَّت عليه أن يعزف لها مقطوعةً ما. وعزف الفتى عزفًا بدا لـ «جو» رائعًا.

جاء الجدُّ إليهما وشكر لـ«جو» تشجيعها لحفيده على العزف، وعبَّر عن امتنانه لها آملًا أن تزورهما ثانيةً. وطلب إليها أن تنقل تحيَّاتهِ إلى أمِّها .

ودّع الفتى فتاته متمنِّيًا لها ليله طيِّبة واعدًا إيَّاها بزيارة أسرتها عندما يُشفي تمامًا من مرضه.

عندما حدَّثت «جو» أهلها عن مغامرتها بعد ظهر ذلك اليوم، شعر الجميع برغبةٍ في زيارةٍ جماعيَّةٍ للقصر، حيث كان لكُلِّ فردٍ أسبابه لمثل هذه الزيارة.

لاحظت «جو» قبل خروجها من قصر آلـ«لورنس» أنَّ الجدَّ لم يكن سعيدًا جدًّا لعزف حفيده. وهذا ما دفعها إلى أن تسأل أمَّها عن سرِّ ذلك.

فقالت لها الأمُّ:

ـ ربما يعود ذلك إلى أنَّ والد «لوري» قد أحبّ شابَّةً إيطاليَّةً موسيقيَّةً ولم يكن الجدُّ سعيدًا بذلك. كانت جيِّدة وودودةً، ولكن السَّيِّد «لورنس» لم يكن يحبُّها، وقد تزوَّج ابنه بها ورحل معها، ولم يعد السَّيِّد «لورنس» يرى ابنه بعد ذلك. ومات الأبوان عندما كان «لوري» صغيرًا، فعاش في كنف جدِّه. ولعلَّ الجدَّ يخشى أن يفقد حفيده، وهذا ما جعله حذرًا. إنَّ حبَّ «لوري» للموسيقى أمرٌ طبيعيٌ، وربما يخشى الجدُّ أن يصبح حفيدهُ موسيقيًّا فيذكِّره بالمرأة التي كرهها.

قالت «جو» بدهشةٍ:

ـ يا للسّخف! لماذا لا يصبح موسيقيًّا إذا كان يريد ذلك؟!

الفصل السادس

الطيران فوق أجنحة السعادة

Flying over the wings of happiness

كان «البيتُ الكبيرُ» قصرًا جميلًا حقًا. وكان الجدُّ «لورنس» يلاطف جميع الفتيات ويسترجع مع أمِّهنَّ ذكريات الأيَّام الخوالي.

وحدها «بيث» كانت تشعر بشيءٍ من الخجل والرَّهبة منه. كانت تفكِّر بأنَّهنَّ فقيرات و«لوري» غنيّ، وكانت هي وأخواتُها يخجلن من قبول معروفٍ لا يستطعن سداده. ولكن سرعان ما تبدَّدت هذه المخاوف عندما قال الجدُّ إنَّه يشعر أنَّهنَّ يحسنَّ إليه ويملأن حياته، في حين أنَّه لا يقدِّم ما يكفي للتَّعبير عن امتنانه لهُنَّ.

• بيث تغني بسعادة كاملة•

ما أجمل الأوقات التي كُنَّ يمضينها في القصر، وما أكثر المباهج والمسرَّات. كانت كُلُّ واحدةٍ منهنَّ تجد ما تتمنَّاه، حتَّى إنَّ «ميج» أطلقت على القصر اسم «قصر النَّعيم». وكنَّ يتصرَّفن أثناء وجودهنَّ فيه وكأنَّهنَّ في بيتهنّ.

اعتقدت «بيث» أنَّ الجدَّ «لورنس» لا يرغب في أن يعزف أحد على البيانو، لكن الجدَّ عرف كيف يلاطفها ويدارى مشاعرها ويدعوها إلى العزف. وألحَّ على دعوتهنَّ إلى الحضور إلى القصر في أيِّ وقتٍ يرغبْن.

وعندها أحست «بيث» بالاطمئنان والامتنان، وأعربت عن رغبه الجميع في الحضور، وعن رغبتها الشَّديدة في العزف. ووجدت نفسها تعصر يده بشدَّة مُعبِّرةً عن خالص مشاعر الودّ تجاهه. قال الجدُّ بحنوٍّ بعد أن لمس شعرها:

ـ كانت لي فتاةٌ لها مثلُ عينيكِ. ليباركِ الله يا حلوتي.

غنَّت «بيث» بسعادةٍ غامرةٍ في تلك الليلة، وأشاعت جوًّا من المرح في البيت كُلِّه. وفي اليوم التَّالي، سارعت إلى القصر، بعد أن غادره الجدُّ والفتى، لتُشْبِع هوايتها وتعطُّشها للموسيقى التي كانت نعشقها.

كانت تطير فوق أجنحه السَّعادة عندما جاءت «حنَّة» ظهرًا لتأخذها إلى البيت لتناول طعام الغداء.

قالت «بيث» لأمِّها بعد بضعة أسابيع من تلك الزيارة الأوَّلى المشهودة للقصر:

ـ أمّي أريد أن أصنع للسَّيِّد «لورانس» زوجًا من الأخفاف. إنَّه رجلٌ لطيفٌ جدًّا، وأنا أريد أن أعبِّر له عن شكري.

قالت الأمُّ:

ـ نعم يا حبيبتي سيسرُّه هذا كثيرًا، وهى طريقةً لطيفةً للتَّعبير عن امتنانكِ له.

وراحت «بيث» تعمل بدأبٍ لإنجاز هذا العمل، تساعدُها في ذلك «ميج»، و«جو»، وبعدما أتمَّت صنع الخُفَّين، بعثت بهما مع رسالةٍ قصيرةٍ إلى الجدِّ «لورانس» وضعتها بمساعدة «لوري» على مكتب الجدِّ ذات صباحٍ قبل أن يصحو من نومه.

ظلَّت «بيث» طوال يومين تترقَّب بلهفةٍ ردَّ فعل السَّيِّد العجوز على الرسالة. وأخيرًا وصلتها رسالة من الجدِّ «لورانس» .

صاحت شقيقاتُها بفرحٍ غامرٍ وهنَّ يقُلن لها :

ـ انظري..انظري.

نظرت «بيث» مذهولةً فوجدت بيانو صغيرًا وفوقه رسالةٌ كتب عليها: «الآنسة إليزابيث مارش».

قالت «بيث» مضطربةً وقد أذهلتها المفاجأة:

ـ اقرئي الرِّسالة أنتِ يا «جو» .

وأخفت وجهها في ثوب أختها لشدَّه سعادتها وخجلها.

فتحت «جو» الرسالة وقرأت:

«الآنسة مارش العزيزة، كان لدىَّ الكثير من الأخفاف في حياتي، ولكنَّني لم أنتعل أبدًا زوجًا يناسب قدميَّ كهذا، يا زهرتي المفضَّلة! هديَّتكِ سوف تذكِّرني دومًا بالإنسانة النبيلة التي قدَّمتها لي. أحبُّ أن أسدِّد لكِ ما علىَّ، ولذا أعلم أنَّكِ ستسمحين «للنبيل العجوز» أن يبعث إليكِ بشيءٍ، كان في

يوم من الأيَّام، مِلك حفيدته الصَّغيرة التي فَقَدَها. مع تمنِّياتي القلبيَّة وخلص شكري.

صديقكِ الممتنُّ وخادمك المطيعُ «جيمس لورانس».

قالت «جو»، وهى تحاول أن تهدِّئ أختها «بيث»، التي بدا عليها الاضطراب:

ـ هذا شرفٌ تفخرين به. لقد كان الجدُّ مولعًا بحفيدته واحتفظ بكُلِّ حوائجها. فكِّرى كم هي ثمينةٌ هديَّتُه حين قدَّم لكِ البيانو الذي كان لها.

قالت «إيمي» معقِّبةً على الرسالة بتأثُّر كبير:

ـ فكِّرى فقط في خاتمه رسالته: خادمكِ المُطيع جيمس لورانس!

قالت «حنَّة» :

ـ هيا جرِّبيه يا حلوتي. أ سمعينا صوت البيانو.

وما كادت «جو» تقترح على «بيث» أن تذهب لتشكر السَّيِّد «لورانس» هديته، حتَّى انتصبت «بيث» شاقَّةً طريقها إلى قصره. واتَّجهت فورًا إلى غرفه المكتب.

كانت تريد أن تقول أشياء كثيرةً، ولكنَّ نظرات الجدِّ الحانية أنستها كلَّ شيءٍ، ولم تجد نفسها إلَّا وذراعاها تعانقانه، وهى تقبِّله. وأحسَّ الجدُّ وهو يُجلِسها على ركبته كأنَّه استعاد حفيدته.

الفصل السابع

عقوبات مرفوضة

Penalties are rejected

قالت «إيمي» ذات يومٍ وهى تتابع «لوري» ممتطيًا جواده ويضربه بسوطه:

ـ لو أنَّ لديَّ قليلًا من المال الذي ينفقه على ذلك الحصان!

واعترفت «إيمي» لشقيقتها بأنَّها في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى المال لتفي ببعض التزاماتها.

فتحت «ميج» حقيبتها وأعطتها بعض المال كي تشترى ما تريد وتسدِّد ما عليها.

وفى اليوم التالي، تأخَّرت «إيمي» في الذَّهاب إلى المدرسة قليلًا، حيث لم تستطع أن تقاوم إغراء عرض ما اشترته من ثمار اللَّيمون.

وسرعان ما سرى الخبر في المدرسة بين زميلاتها اللواتي تقاطرْن إليها. وثار الحسد في نفوس بعضهنَّ لاسيَّما «جينى سنو» التي كانت تُعيِّر «إيمي» من قبل.

وأدَّى بها الحسد إلى أن تشكوها إلى المُدرِّس السَّيِّد «ديفيز» واشيةً إليه أنَّ «إيمي» قد جمعت ثمار اللَّيمون في درج مقعدها.

قال المُدرِّس بغضبٍ:

ـ إنَّ ثمار اللَّيمون مادةٌ محظورةٌ.

وأعلن أنَّه سيعاقب مَنْ يخرق النظام. ثُمَّ طلب إلى «إيمي» أن تُحضر كُلَّ ما في مقعدها من ثمار وتلقى بها من النافذة.

احمرَّ وجه «إيمي» خجلًا وحارت في ما تفعل. التفت الأستاذ إلى الفتيات مُعنِّفًا، وراح يتحدَّث بصرامةٍ عن احترام النظام. ولم تشفع لـ«إيمي» نظرات التضرُّع، فقد أصرَّ الأستاذ على معاقبتها.

أحسَّت «إيمي» بمهانةٍ جارحه لم تشعر بمثلها في حياتها، جرَّاء تعرُّضها لعقوبةٍ جسديَّةٍ وأدبيَّةٍ أمام زميلاتها.

وبعد أن انتهت عقوبة «إيمي»، رمقتْ أستاذها السَّيِّد «ديفيز» بنظره لوم حادَّةٍ وهى تخرج صامتةً من الصفِّ وانتزعت أشياءها، وخرجت عازمة علىً ألَّا تعود.

وعندما وصلت إلى البيت كانت في غاية الحزن والأسى. انزعجت شقيقاتُها لما حدث، ولم تملك السَّيِّدة «مارش» إلَّا أن تواسيها ببضع كلمات.

لم يلاحظ خروج «إيمي» من المدرسة إلَّا بعضُ زميلاتها، ولكن السَّيِّد «ديفيز» كان عصبيًّا على نحوٍ غير عاديٍّ بعد ظهر ذلك اليوم. وقبل أن تغلق المدرسة أبوابها وصلت «جو» حاملةً رسالةً من أمِّها إلى المدرسة وراحت تجمع حاجات أختها.

قالت السَّيِّدة «مارش» في ذلك المساء:

ـ أنا لا أُقرّ العقوبة الجسديَّة وبخاصَّةٍ للبنات.

وأذنت لابنتها أن تأخذ إجازة من المدرسة، على أن تدرس كُلَّ يوم مع شقيقتها «بيث». ومع هذا، فقد وبَّخت ابنتها لأنَّها خرقت الأنظمة وإن كانت لا تقرُّ أسلوب العقوبة الذي تعرَّضَتْ له .

الفصل الثامن

قبلة أخوية حارة
Hot brother kiss

تأهَّبت الأختان الكُبريان «ميج»، و«جو» لمغادره المنزل والذَّهاب إلى المسرح، بعد تلقِّيهما دعوة من «لوري» لمشاهدة مسرحية «القلاع السبع».

ولمَّا علمت «إيمي» بذلك طلبت إليهما أن يصطحباها معهما. فرفضت الأختان اصطحابها لأنَّها لم تكن مدعوَّةً، ولأنَّ ذهابها معهما قد يحرج «لوري».

توسَّلت إليهما «إيمي» بحرارةٍ، ولكنَّ «جو» رفضت بإصرارٍ، في حين قالت لها «ميج»:

ـ بوسعكِ أن تذهبي مع «بيث»، و«حنَّة» الأسبوع المقبل.

بكت «إيمي» متوسِّلة ولكنَّ دموعها ذهبت سدى. وعندما شعرت بعبث توسُّلاتها قالت لـ«جو» مغتاظة:

ـ ستندمين على ذلك يا «جو مارش»!

كانت المسرحية رائعةً بزخارفها وأجوائها وممثِّليها، ولكنَّ ذلك لم يمنع «جو» من أن تشعر بغصَّةٍ وهى تفكّرِ: «ماذا تستطيع «إيمي» أن تفعل كي تجعلها تندم؟!».

عندما عادت الأختان من المسرح إلى البيت، كانت «إيمي» تقرأ في كتابٍ، وكانت ملامح وجهها تدلُّ على أنَّها لا تزال مكسورة الخاطر.

بعد ظهر اليوم التالي، تفقَّدت «جو» مكتبتها فلاحظت أنَّها تنقص كتابًا. سألت شقيقاتِها الثلاث اللَّواتي كنَّ مجتمعاتٍ معًا عن الكتاب، فنَفَتْ «ميج»، و«بيث» معرفتهما به، في حين سكتت «إيمي» .

وجَّهت «جو» السُّؤال إلى «إيمي» فأنكرتْ أنَّها أخذته. وسرعان ما نشبت مشادَّةٌ بين الأختين.

وأمام إصرار «جو» التي كانت حريصة على الكتاب وعلى إكمال تأليفه قبل عوده والدها، اعترفت «إيمي» بأنَّها أحرقته تشفِّيًا من موقف «جو» بالأمس.

صاحت «جو» وهى تبكى غاضبةً وحزينةً معًا، وقد أخذت تهزّ كتفَيْ «إيمي» بيديها:

ـ أنتِ فتاةٌ شرّيرة.. شرّيرةٌ. لن أغفر لكِ هذا أبدًا.

اندفعت «ميج» لتنقذ «إيمي» من بين يدي «جو»، فيما أخذت «بيث» تهدِّئ من ثوره «جو».

عندما عادت السَّيِّدة «مارش» إلى البيت وعلمت بالقصَّة، استدعت «إيمي» ووبَّختها على فعلتها، وعرَّفتها بقيمه الكتاب بالنسبة إلى «جو» التي استغرقتها كتابتهُ بضع سنوات.

كان عملها واعدًا وجيِّدًا، والآن ضاع كُلُّ شيءٍ، لأنَّ «جو» لم تكن تحتفظ إلَّا بنسخةٍ واحدة.

بدت «إيمي» شديدة الحزن والأسف وقت تناول الشَّاي، وحاولت أن تعتذر إلى أختها «جو» بحرارة، ولكنَّ الأخيرة رفضت اعتذارها بشدَّه، وقد بدت علاماتُ الغضب على وجهها.

قالت الأمُّ برفقٍ وهى تقبِّل ابنتها «جو» قبله المساء:

ـ لا تدعى النهار يفوت يا غاليتي وأنتِ غاضبة. فلتسامح إحداكما الأخرى ولتبدأ كُلُّ واحدة منكما يومًا جديدًا.

وفي اليوم التَّالي، ظلَّت «جو» مكفهرَّة الوجه غير قادرة على نسيان ما حصل. وعزمت على الذَّهاب إلى التزلّج مع «لوري» لعلَّ ذلك يواسيها.

حاولت «إيمي» أن تعلّق على قرار أختها، ولكنَّ «ميج» نهرتها وقالت لها أن تذهب خلفهما وأن تنتظر حتَّى تستعيد «جو» مِزاجها الطَّيب مع «لوري» وتُقبِّلها.

لحقت «إيمي» بهما. واستعدَّ كلاهما للتزلُّج قبل وصول «إيمي» إليهما. قال «لوري» أنَّه سيذهب إلى المنعطف الأوَّل ليستطلع المنحدر قبل أن يبدأ التزلُّج.

صاح «لوري» مُحذِّرًا «إيمي» وهو يراها تتعثَّرُ في تزلُّجها:

ـ لا تقتربي من حافة النهر فالمكان غير آمنٍ في المنطقة الوسطى.

لم تسمع «إيمي» تحذيره، وسرعان ما سقطت في كومةٍ من الثلج وأطلقتْ صرخةً جعلت قلب «جو»، التي تنبَّهت لسقطتها، يكاد يتوقَّفُ من الرُّعب.

حاولت أن تستنجد بـ«لوري» ولكنَّ صوتها ذهب هباءً. وتمالكت قواها رغم شعورها بالعجز والألم.

• الفتيات في رحلتهن للتزلج علي الجليد•

صاح «لوري» فجأةً:

ـ احضري قضيبًا بسرعةٍ..هيا بسرعةٍ.

وتعاون الاثنان على نقل «إيمي» إلى المنزل، وهما يبكيان وقد تملَّكهما الرُّعب، ووضعاها قرب المدفأة وغطَّياها بأغطيةٍ سميكة.

قالت «جو» وقد اغرورقت عيناها بدموع الأسى والندم:

ـ أمّاه، إذا ماتت «إيمي» لا سمح الله، فستكون غلطتي.

وألقت «جو» باللَّوم على طبعها السيِّئ وقالت باكية:

ـ بربَّكِ يا أمّاه ماذا أفعل؟

أخذت الأمُّ تواسى «جو» الحزينة بكلماتٍ طيِّبةٍ تعيد لها الطمأنينة والثقة بالنفس. تنهدَّت «إيمي» وهى نائمةً. فقالت «جو» نادمةً بصوتٍ مسموعٍ:

ـ ويحي! لقد سمحت لنفسي أن يمرَّ عليَّ النهار وأنا غاضبةٌ.. كم كنت شرّيرةً حين لم أغفر لها!

وانحنت فوق أختها وبرقَّةٍ راحت تمسح بيدها شعرها الرَّطب.

فتحت «إيمي» عينيها وفتحت ذراعيها بابتسامةٍ اخترقت قلب «جو». وسرعان ما تعانقتا بقوَّةٍ كُلُّ شيءٍ بقبلةٍ أخويَّةٍ حارَّة.

الفصل التاسع

خطط مختلفة!

Different plans!

غادرت «ميج» لتقضي أسبوعين للتَّرفيه والمُتْعة عند أسرة «موفات». وكانت هذه العائلة تنتمي إلى الطَّبقة الأرستقراطيَّة.

في البداية، شعرت «ميج» بالرَّهبة إزاء روعة المنزل وأناقة سكانه وقاطنيه. ولكنَّ عائلة «موفات» كانت لطيفةً وسرعان ما تُشعر ضيفها بالرَّاحة.

وفي هذا الجوِّ من الرَّاحة والطمأنينة، أخذت «ميج» تقلِّد طباع مَنْ حولها وطريقتهم في الحديث.

أمضت الصَّبايا الثلاث وقتًا ممتعًا في التسوُّق والتَّنزُّه، والذهاب إلى المسرح والأوبرا، أو تمضية الوقت في البيت مساءً يتمازحن ويمرحن مع بعضهنّ .

وعندما حان وقت الحفلة الصَّغيرة، شعرت «ميج» أنَّ ملابسها المتواضعة لا تليق بالمناسبة. أحسَّت بمعنى نظرات الفتيات «سالي»، و«آني»، و«بيل» إليها وشعرت بالإحراج.

ولكنَّ الفتيات كنَّ دمثاتٍ ورُحْن يساعدنها في زينتها حتَّى لا يُشعرنها بالخجل والإحراج .

شعرت «ميج» بالأسى لفقرها. ولكنَّ أساها سرعان ما تبدَّد عندما وصلتها باقة من الأزهار هديَّة من «لوري». وشعرت بسعادةٍ أكبر وهي توزِّع الورود والأزهار على رفيقاتها.

استمعت بليلتها تلك خاصَّة بعد أن رقصت ما فيه الكفاية. وفيما كانت تنتظر شريكها في الرَّقص، الذي ذهب ليُحضر لها قطعةً من الثلج، سمعت في الجانب الآخر من الجدار المغطَّى بالأزهار، كلامًا فيه الكثير من السُّخرية والطَّعن بها وبأسرتها. أثار هذا الكلام غضبها وحنقها، ولكنَّها استعانت بكبريائها لإخفاء مشاعرها الدفينة.

وفيما هي على هذه الحال من الكرب والخجل، اقتربت منها الآنسة «بيل» وقالت لها إنَّها أرسلت دعوةً إلى صديقها السَّيِّد «لورنس» لحضور حفلة يوم الخميس.

ولكن «ميج» أفهمتها أنَّ «لوري» ليس صديقها.

وهنا تدخَّلت «سالي» محاولةً تغيير مجرى الحديث، وسألتها عمَّا ستلبس في الحفلة. وشعرت «ميج» مرَّة أخرى بالإحراج، ولكنَّ «بيل» ألحّت عليها أن تقبل ارتداء ما يناسبها من ثيابها.

وفي ليلة الخميس، كرَّست «بيل» نفسها مع خادمتها لجعل «ميج» تبدو فتاةً رائعةً في أحسن حُلَّةٍ، وأبهى زينةٍ.

وعندما أوصلتها «بيل» إلى قمة ما تريد قالت لها:

ـ تعالي وأظهري نفسكِ.

وراحت «ميج» تخطو بثوبها الجميل وزينتها البهيَّة مستمتعةً بالنظرات الحاسدة من حولها.

قالت لها «سالي»:

ـ أنتِ جميلةٌ جدًّا وتبدين كآنسةٍ فرنسيَّةٍ، ولكن حاذري أن تتعثَّري.

نزلت «مارجريت» السُّلَّم بتؤدة وانضمَّت إلى حيث تجمَّع عددٌ من الضيوف وأفراد عائلة «موفات».

أصابت الدهشة كثيراتٍ ممَّن لم يُعِيروها انتباهًا من قبل. وكذلك بات كثيرٌ من السَّادة الذين لم يعيروها اهتمامًا يطلبون التعرُّف بها.

وفيما كانت «ميج» تلوِّح بمروحتها وتضحك، إذا بها وجهًا لوجه أمام «لوري» .كان يحدِّق فيها بدهشةٍ ظاهرة وبعدما رضا. انحنى لها وابتسم، ولكنَّ شيئًا ما في عينية جعلها تحمرُّ خجلًا وتتمنَّى لو أنَّها كانت ترتدي ثوبها القديم. فقالت له:

ـ أنا سعيدةٌ بقدومك. كنت أخشى ألَّا تأتي.

ـ «جو» أرادتني أن أحضر وأخبرها كيف كان مظهركِ.

ـ وماذا ستقول لها؟

تساءلت «ميج» بشيءٍ من الضيق.

ـ سأقول لها إنّي لم أعرفكِ لأنَّكِ تبدين أكبر من سنِّكِ ولم تعودي أنتِ .

ـ يا للسّخف! الفتيات ألبسنني كي أمرح. ألَّا تحبُّني كذلك؟

أجابها «لوري» بطريقةٍ فظَّةٍ :

ـ لا.

انزعجت «ميج» من طريقة تعبيره التي خلت من أيّة علامة من علامات أدبه المعتاد.

فقالت مغتاظةً وهي تغادر مكانها:

ـ أنت أوقح فتى رأيتُه.

ومشت إلى النافذة كي تستشعر شيئًا من البرودة. وسرعان ما اقترب منها «لوري» شاعرًا بالندم، وهو يقول لها:

ـ أرجو أن تغفري لي وقاحتي وأن تتقبلي بالرَّقص معي، تعالي.

ومدَّ إليها يده.

ابتسمت «ميج» ومشيا معًا بعيدًا. ورجته ألَّا يخبر أحدًا من أهلها عن ثوبها في تلك الليلة وقالت إنَّها ستخبرهنَّ بنفسها.

وفيما هما يتجاذبان أطراف الحديث بثقةٍ وموَدَّةٍ، اقترب منهما «تيد موفات» ليطلب يد «ميج» للرَّقص، فتركها «لوري» ولم يتدخَّل إلَّا عندما أسرفت «ميج» في تناول المشروبات المُسكرة.

شعرت «ميج» بالمرض طوال اليوم التَّالي. وعادت يوم السبت إلى بيتها وهي تشعر بالرَّاحة والسكينة.

وراحت تقصُّ على شقيقتها مغامراتها مبتهجةً وتحدَّثهنَّ عن الأوقات السَّعيدة التي أمضته ولكن ما إن مضت شقيقتاها الصُّغريان إلى النَّوم، حتَّى

ذهبت إلى حضن أمِّها لتعترف بكُلِّ الأشياء الشنيعة التي اقترفتها لدي أسرة «موفات». وراحت تروي لها كُلَّ ما حدث بالتَّفصيل.

قالت الأمُّ تلوم نفسها:

ـ لم يكن من الحكمة أن أسمح لكِ بالذهاب إلى أناسٍ لا أعرف عنهم إلَّا القليل، أناسٍ يفتقدون التهذيب، ولديهم الكثير من الأفكار المبتذلة.

أطرقت «ميج» تفكِّر في ما فعلت وفي ما سمعت ثُمَّ سألت أمَّها:

ـ أحقًّا لديكِ خِطَطٌ كما قالت السَّيِّدة «موفات»؟

قالت الأمُّ:

ـ نعم يا عزيزتي. لديَّ الكثير من الخطط، وكُلُّ الأمّهات لديهنَّ خططٌ. ولكنَّ خططي تختلف عمَّا تفكِّر فيه السَّيِّدة «موفات». أريد لبناتي أن يكنَّ جميلاتٍ وطيِّباتٍ، وأن يكنَّ موضوع إعجابٍ وحبٍّ واحترام، وأن يعشن حياةً سعيدةً، وأن يتزوَّجن زيجاتٍ عاقلة. أنا ووالدكنَّ على ثقة بأنَّ بناتنا، سواءٌ كنَّ عازباتٍ أو متزوِّجاتٍ، سيكنَّ فخرًا لنا وراحةً لحياتنا.

صاحت «ميج»، و«جو» معًا: «سنكون كذلك يا أمّاه، نقسمُ لكِ أنَّنا سنكون كذلك».

❋❋❋

عندما حلَّ الربيع وحلَّت معه مباهجُ جديدة. ومع تفتُّح الأزهار، كان لابدَّ من العناية بالحديقة الصَّغيرة. وراحت الشقيقات الأربع يولين اهتمامهنَّ للعناية بها. كانت كُلُّ واحدة منهنَّ تُعني بما تحبُّ من الورود والأزهار.

وهكذا، شغلن أوقات فراغهنَّ بهذه الهواية الممتعة بالإضافة إلى هواية التجديف في النهر .

أمَّا في الأيَّام الممطرة، فقد كان لديهنَّ تسلياتٌ أخرى، إذ لمَّا كنَّ معجباتٍ بالروائي الإنجليزي «تشارلز ديكنز»[5] وبروايته المرحة «السَّيِّد بيكويك» فقد شكَّلن جمعيَّةً أطلقن عليها اسم نادي بيكويك. وانتحلت كُلُّ واحدةٍ منهنَّ شخصيَّةً من شخصيَّات هذه الرواية، ورُحْن يمثِّلن أدوارها. وكان اندماجهنَّ في تمثيل هذه الأدوار، وما يطرأ عليها من مفارقاتٍ، يجلب لهنَّ الكثير من المرح والمتعة والسَّعادة.

❊❊❊❊

(5) تشارلز جون هوفام ديكنز Charles John Huffam Dickens :وُلد في السَّابع من فبراير 1812، وتوفي في التاسع من يونيو1870 .يُعدّ بإجماع النُّقّاد أعظم الروائيين الإنجليز في العصر الفيكتوري، ولا يزال كثيرٌ من أعماله تحتفظ بشعبيَّةٍ جارفة حتى اليوم. يتمَّيز أسلوبه بالدُّعابة البارعة والسخرية اللاذعة.من أشهر أعماله: «أوليفر تويست» Oliver Twist (عام1839)، و«قصَّة مدينتين» A Tale of Two Cities (عام1859)، و«دافيد كوبرفيلد» David Copperfield (عام 1850)، و«أوقات عصيبة» Hard times.

إضافة إلي رواية «الآمال العظيمة» Great Expectations، والتي قدمناها ضمن هذه السلسلة في الإصدار الخامس.(المُعد)

الفصل العاشر

الاختبار القاسي..قد نجح!

Hard test has succeeded!

شكَّل سفر عائلة «كينج» إلى الشاطئ للاصطياف فترة ثلاثة أشهرٍ فرحةً بالغةً لـ«ميج»، لأنَّه سيمنحها الرَّاحة في هذه العطلة الطَّويلة.

أمَّا «جو»، فكانت متعبة وتريد أن تقضي يومها في السرير كي تنال قسطها من الرَّاحة، بالإضافة إلى ممارسة متعة القراءة.

وفيما رغبت الصَّغيرتان «إيمي»، و«بيث» بالانصراف إلى دروسهما نصحتهما الأمُّ بالقيام بما يترتَّب عليهما من اختبار.

استيقظت «ميج» في الصَّباح، وجلست في الرُّكن الذي تجلس فيه والدتها، وراحت تحلم بملابس الصَّيف التي ستشتريها من راتبها.

أمَّا «جو»، فقد أمضت صباحها مع «لوري» عند النهر فيما انصرفت بعد الظهر إلى القراءة.

وعكفت «بيث» على موسيقاها، بينما اشتغلت «إيمي» بالرَّسم وهي تتخيَّل كيف ستصبح رسَّامةً مشهورةً ذات يوم .

شعرت الفتيات بأنَّ الوقت يمضي بطيئًا ومملًا. ولكن لم تشأ أيَّةُ واحدة منهنَّ أن تعترف بوطأة الاختبار الذي كان عليهنَّ القيامُ به.

وعندما صرفت الأمُّ «حنَّة» في إجازةٍ، شعرت الفتيات بهمٍّ أكبر وتذكَّرن قول «حنَّة»: «إنَّ تدبير المنزل ليس بنزهةٍ».

وعندما قرَّرت الأمُّ أن تختلي بغرفتها وتترك لهنَّ تدبير شؤون المنزل، بما في ذلك تحضير طعام الإفطار والغداء، اكتشفن مدى قصر باعهنَّ وضآلة خبرتهنَّ في هذا المجال، ومقدار العبء الكبير الذي تقوم به «حنَّة».

كان على «جو» أن تُحضِّر طعام الغداء لضيوفها، وأن تتسوَّق كُلَّ شيء وتعدَّ كُلَّ شيء. وفي المطبخ، اكتشفت أنَّ الإرادة وحدها لا تكفي. لقد ارتكبت «جو» عدَّة أخطاء في طريقة تحضير الطَّعام وفي تقدير المعايير المناسبة. وجاء الغداء الذي حضَّرته مهزلة. وشعرت بالخجل وهي ترى ضيوفها، خاصَّة «لوري»، ينصرفون عن صنفٍ بعد آخر.

وضحك «لوري» بصوتٍ عالٍ كي يبدِّد جوَّ الوجوم والصَّمت الذي ران على الجميع، وحتَّى لا يتحوَّل الغداء إلى مأساةٍ، وقد كاد، خاصَّة حين احتقن وجه «جو» وكادت تبكي وهي تستطلع وجوه مَنْ حولها بعدما تذوَّقوا ما صنعت يداها.

ولكنَّها بدلًا من أن تبكي، انقلبت إلى الضَّحك، حيثُ نظرت إلى الجانب الكوميديِّ من المشهد، وتبعها الآخرون أيضًا بمَنْ فيهم السَّيِّدة «كروكر» التي كانت تبدي الكثير من علامات الامتعاض وهي تجرِّب صنوف الطَّعام. وهكذا انتهى الغداء التعس نهايةً مرحة.

تَنَفَّسَ كُلٌّ من «جو»، و«ميج» الصُّعداء بعد عناء يوم طويلٍ، إثر ذهاب الضُّيوف. وجلست الفتاتان ومعهنَّ «إيمي» وقد أخذ منهنَّ التَّعب كُلَّ مأخذ. وانضمَّت إليهنَّ أمُّهنَّ وقد قالت:

ـ هل أنتنَّ راضياتٌ يا بناتي عن الاختبار، أم أنَّكُنَّ تفضَّلن أسبوعًا آخر؟

ردت الفتيات بصوتٍ واحد تقريبًا: «لا..لا نريد ذلك».

قالت الأمُّ:

ـ من الأفضل إذًا أن تقمن بالقليل من الواجبات، وأن تقدِّمن شيئًا للآخرين..أليس كذلك؟

وتابعت الأمُّ تدعوهنَّ إلى تعلُّم الطَّهي لأنَّه أمرٌ لا يمكن للمرأة أن تستغني عنه.

قالت «ميج» وقد أدركت حيلة أمِّها:

ـ أمّي، هل تركتِنا وابتعدتِ كي تري كيف نتصرَّفُ من دونكِ؟

قالت الأمُّ:

ـ نعم، أردت أن تعرفن أنَّ راحة الجميع تعتمد على ما تقومُ به كُلُّ واحدةٍ منكنَّ بإخلاصٍ. أليس من الأفضل أن تساعد كُلُّ واحدةٍ الأخرى بحيث يكون المنزل مريحًا ومبهجًا للجميع؟

صاحت البنات: «سنفعل ذلك يا أمي، سنفعل».

وأدركت السَّيِّدة «مارش» عندئذٍ أنَّ اختبارها لبناتها قد نجح .

❋❋❋❋

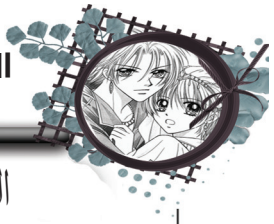

الفصل الحادي عشر

الرحلة..والحديث الجانبي!

The trip .. and the side talk

عادت «بيث» من مكتب البريد ذات يوم من أيَّام شهر يوليو(تمُّوز)، وهي تحمل رسائل وهدايا إلى «ميج»، و«جو» .وكان نصيب «جو» من الرَّسائل رسالتين، أحداهما رسالةً رقيقةٌ من أمِّها تعبِّر فيها عن ارتياحها لحُسن تصرُّف «جو» التي باتت تحسن التحكُّم بطبعها وتدعو لها بالنجاح والتوفيق. والأخرى من «لوري» .

وكانت رسالة «لوري» تقول إنَّه سيُخيِّمُ في منطقةٍ تدعى «لونج ميدو» مع عددٍ من الأصدقاء حيث سينتقلون إليها بالقوارب، ويتغدّون ويلعبون الكريكت[6] Cricket. وهو يدعوهنَّ بإلحاحٍ إلى الانضمام إليهم حيث البهجةُ والصحبة الجميلة.

(6) الكريكت Cricket:رياضةٌ جماعيةٌ يلعبها فريقان، كُلّ فريق يتكوَّن من11 لاعب. تضرب فيها كرة بحجم قبضة اليد من قِبل لاعب يدعى «رامي الكرة» Bowler، أمَّا اللَّاعب الخصم الذي يدعى رجل المضرب فيحاول صدّ الكرة باستخدام مضرب نحيف. يتركّز الانتباه أساسًا حول علامتين تشكلان الأهداف تدعيان «ويكيت» Wicket، وهما مجموعة من ثلاثة عصي متصلة تسمى جذوع الكريكيت، يحاول رامي الكرة إصابتها لكي يوقع قطعتان خشبيتان اثنتان مثبتتان على الجذوع.(المُعد).

طارت «جو» فرحًا وهُرعت تخبر «ميج» وأمَّها وتطلب إذنها للانضمام إلى «لوري» وصحبه من فتيانٍ وفتياتٍ وصبية.

وما إن اخترقت أشعَّة الشمس غرف نوم الفتيات في صباح اليوم التَّالي واعدةً بيومٍ مشرقٍ، حتَّى كانت «جو» أولى الصَّاحيات من النَّوم لتوقظ أخواتها. وسرعان ما ارتدين الملابس الصيفيَّة الخفيفة وارتسمتْ على وجوههنّ السَّعادة والبهجة.

هُرع «لوري» للقائهنّ وتعريفهنَّ بأصدقائه. سُرَّت «ميج» بلقاء الآنسة «كيت» بثيابها البسيطة وأحسَّت بالزَّهو لكلمات «تيد» الذي أكَّد لها أنَّه جاء خصِّيصًا كي يراها.

واختارت «بيث» الفتى الأعرج كي تصادقه، في حين استلطفت «إيمي» الفتى «جريس»وسرعان ما تصاحبا .

وكانت الخيام والأطعمةُ مُعدَّةً مسبقًا، وسرعان ما ابتدأت الحفلة. وانطلق القاربان معًا: «لوري»، و«جو» في قاربٍ، والسَّيِّد «بروك» و«تيد» يجدِّفان في القارب الآخر. حيث جلست «ميج» وجهًا لوجه مع السَّيِّد «بروك» الصامت الوسيم ذي الصَّوت العذب الذي أحبَّت خصاله. والى جانب «تيد» الذي يحاول أن يشيع جوًّا من البهجة.

أمَّا «سالي جاردنر» فكانت تجاذب فرد أطراف الحديث، وقد شغلتها فكرة المحافظة على ثوبها الأبيض نظيفًا.

لم تكن المسافة إلى «لونج ميدو» بعيدة. وكانت الخيمة قد ضُرِبَتْ لتّوها وسط حقلٍ أخضر انتصبت في وسطه ثلاثٌ من أشجار السنديان الوارفة وإلى جانبها شريطٌ من العشب يصلح للعبة الكريكت .

قال المضيف وهم يترجَّلون من القوارب:

ـ أهلًا بكم في مُخيَّم «لورنس» .

وراح يوزِّع الرُّتب والأمكنة على الجميع مقترحًا القيام بلعبة الكريكت قبل الشروع بالغداء.

وراحوا يلعبون بحماسةٍ ونشاط ويتبارون ويتنافسون ويتقاذفون الكرة. واشتدت المنافسة بين الأمريكيين والبريطانيين حتَّى كادت تتحوَّل إلى مشادة لولا تمالُك «جو» أعصابها. وهذا ما راق لأختها «ميج» التي هنأتها على حُسن تصرُّفها .

صاح السَّيِّد «بروك» وهو ينظر إلى ساعته:

ـ حان وقت الغداء!

وراح يوزِّع المهمَّات على الأفراد.

ونهضت «جو» لصنع القهوة، في حين راح كُلٌّ من الآخرين يقوم بعملٍ ما. ومُدَّت مائدةٌ رائعةٌ حافلةٌ بأصناف الطَّعام الطَّازجة والشهيَّة.

قالت «جو» مازحةً تخاطب «لوري» :

ـ كيف تجرؤُ على تذكيري بالغداء التعيس الذي دعوتك إليه، في حين أنَّ غداءك حافل بكُلِّ ما هو ممتع؟

وضحكا معًا .

سأل «لوري» :

ـ ماذا نفعل بعد الغداء؟

كانت الآنسة «كيت» تعرف ألعابًا جديدةً كثيرةً، لذا تحوَّل الجميع إلى ركن الاستقبال كي يلعبوا لعبة الكلام الفارغ.

وراحت «كيت» تشرح قواعد اللُّعبة:

ـ يبدأ أحدكم بسرد قصَّةٍ، يقول أيَّ كلام مهما كان، ويقصُّ ما يشاء، ولكن عليه أن يتوقَّف عند نقطةٍ مثيرةٍ، وعندها يأتي دور غيره ويتابع على المنوال نفسه..وهكذا.

وأضافت بلهجةٍ آمرةٍ:

ـ ابدأ أنت يا سيِّد «بروك».

أطاع «بروك» وشرع يحكي قصَّة.

ضحك الجميع من هذه القصَّة بعد أن أدّوا أدوراهم.

واقترحت «سالي» لعبةً جديدةً اسمُها الحقيقة. وشرحت هذه اللُّعبة بأنَّه ينبغي على اللَّاعب فيها أن يجيب بصراحةٍ عن أيَّة أسئلةٍ يطرحها عليه الآخرون. إنَّها ممتعةً جدًّا.

وقالت «جو» :

ـ دعونا نجرِّبها.

وقع الخيار على «لوري» بعد إجراء السَّحْب.

وتقاطرت الأسئلة الطَّريفة والمحرجة على «لوري» الذي أجاب عنها بواقعيَّة، وضحك الجميع.

وجاء بعده دور فْرِدْ، الذي بادرته «جو» بسؤالٍ فيه تَشَفٍّ:

ـ ألم تغشَّ في لعبة الكريكت؟

واعترف «فْرِدْ»بذلك، فأثلج هذا الجواب صدر «جو» التي كانت مستاءة من تصرُّفاته أثناء اللَّعب.

ثُمَّ قالت:

ـ «لُعبة الحقيقة»..لعبةٌ سخيفةٌ..دعونا نلعب «لعبة المؤلِّفين» التي تشحذ أذهاننا.

وفي حين انخرط معظمهم في اللُّعبة الجديدة، انزوت «ميج» مع السَّيِّد «بروك» في حديث رقيق عن الغناء والأدب. وراحت تقرأ في كتابٍ لـ«شيلر» أعطاها إيَّاه. وبعدما أثنى السَّيِّد «بروك» على قراءتها امتد بينهما حديثٌ شيِّقٌ ووجدانيٌّ أثار عاطفته.

أمضى الجميع ذلك النَّهار بسعادةٍ وسُرور.

وعند الغروب، انفضَّ كُلُّ شيءٍ وعادت المجموعة كُلُّها بالقوارب تجدِّف وتغني.

الفصل الثاني عشر

ميلاد كاتبة

The birth of a writer

حلَّ الخريف، ومع نهارات الخريف القصيرة، كانت «جو» تعمل بدأبٍ كي تنجز الأوراق التي بين يديها. وعندما أنجزت هذا العمل، ذيَّلتهُ بحاشية تقول: «قدَّمتُ هنا أفضل ما أستطيع! وإذا كان هذا لا يناسب، فعليَّ أن أنتظر حتَّى أستطيع القيام بما هو أفضل».

حملت «جو» أوراقها وخرجت إلى الطَّريق وركبت حافلةً عامَّةً واتَّجهت نحو المدينة، وعندما نزلت اتَّجهت بخطى مسرعةٍ إلى عنوانٍ محدَّدٍ في شارعٍ مزدحمٍ. تردَّدت كثيرًا في الدُّخول. ولم يَطُلْ بها المقام في ذلك المكان، إذ سرعان ما نزلت وهذا ما أثار دهشة رجلٍ كان يراقبها ويتساءل بفضولٍ عن سرِّ مجيئها بمفردها.

وتشاء الصُّدف أن تلتقي «لوري» الذي بدا مندهشًا لرؤيتها فسألها عمَّا يُزْعجها! ومشى إلى جانبها صامتًا لبرهةٍ، ثُمَّ قال لها إنَّه يودُّ أن يتمشَّى معها قليلًا ويخبرها بأمرٍ مهم.

أبدت «جو» رغبتها في سماع ما يودُّ أن يقول. عندئذٍ قال لها:

ـ حسنًا، إنَّه سرٌّ، وإذا كنت سأطلعكِ عليه فلابدَّ من أن تُطليعنى على أسراركِ.

وعندما نفت «جو» أن يكون لديها أسرارٌ. قال لها «لوري» :

ـ أنتِ لا تستطعين أن تخفى شيئًا. هيَّا أفصحى وإلَّا لن أخبركِ بشيءٍ.

واعترفت «جو» بأنَّها سلَّمت قصَّتين إلى صحافيٍّ يعمل في جريدةٍ ليُبْدِى رأيه فيهما.

صاح «لوري» استحسانًا وألقى بقُبَّعته عاليًا وهو يقول:

ـ الله! ستكون الآنسة «مارش» مؤلِّفةً أمريكيّةً مشهورة!

وبعد أن سمعت «جو» كلمات الثناء والتشجيع من «لوري»، قالت:

ـ والآن ما هو سرُّك أنت؟

قال لها «لوري» :

ـ أعرف أين يوجد قفَّاز «ميج» الضائع.

ومال نحوها وأسرَّ همسًا بكلماتٍ قليلةٍ.

بدت «جو» مستاءة ممَّا سمعت، خلافًا لما اعتقد «لوري» .

كانت أبعاد ما سمعته «جو» من «لوري» تُقلقها. وسرعان ما انعكس ذلك على سلوكها المُستغرب في المنزل. كانت تندفع نحو الباب عندما يقرع ساعي البريد جرس المنزل، وتعامل السَّيِّد «بروك»بجفاءٍ عندما تقابله، وتنظر إلى «ميج» بوجه مُثقلٍ بالهموم، وتقفز إليها من وقتٍ إلى آخر لتهزَّها ثُمَّ تقبِّلها بطريقةٍ غريبةٍ.

دلفت «جو» إلى الغرفة فجأةً بعد أن وقفت في الحديقة مع «لوري» يتضاحكان ويمرحان. جلست من فورها على الأريكة وراحت تقرأ بشغف. سألتها «ميج» التي كانت تحيك الثياب:

ـ هل هناك ما يثير اهتمامكِ؟

قالت «جو» وهى تخفى عنوان الجريدة:

ـ لا شيء. إنَّها مُجرَّد قصَّةٍ عنوانها: الرسامون المتنافسون.

طلبت «ميج» من «جو» أن تقرأ القصَّة. وراحت «جو» تقرأ بسرعةٍ وشقيقاتها الثلاث يُتابعنها باهتمام. فالقصَّة كانت رومانسيَّة ومُحزنةً بعض الشيء إذ يموت معظم أبطالها في النهاية.

وبعد أن أنهت «جو» القراءة راحت شقيقاتها يُعلِّقن عليها. وفجاه سالت «بيث» التي التقطت لمحات وجه «جو» :

ـ مَنْ كتب هذه القصَّة؟

وهنا نهضت «جو» وهى تظهر الرَّزانة والوقار:

ـ إنَّها أختكنَّ.

صاحت «ميج» وهى تلقى ما في يدها:

ـ أنتِ!

وتعالت صيحات الإعجاب من الجميع وغمرهُنَّ فرحٌ كبيرٌ.

لم تشأ «ميج» أن تصدِّق إلَّا بعد أن شاهدت اسم أختها «جوزفين مارش» مطبوعًا في الجريدة.

وقالت «حنَّة» التي جاءت تستطلع النبأ

ـ كم ستفخر بكِ السَّيِّدة «مارش» عندما تعلم!

وكشفت «جو» النقاب عن قصَّتها الثانية، وكيف أعجب بهما المسؤول في الجريدة. وأعلنت عن رغبتها في الكتابة من جديدٍ، وأنَّ قصَّتها ستكون مُقابل أجر هذه المرَّة. وأعربت عن سعادتها بذلك لأنَّها مع الوقت ستساعد نفسها وتساعد أخواتها.

إنَّها الخطوة الأوَّلى نحو نهايةٍ سعيدة.

❊❊❊❊

الفصل الثالث عشر

البرقية المشؤومة

The ominous cable

أعربت «مارجريت» عن استيائها من شهر نوفمبر(تشرين الثاني)، وهى تنظر من النافذة إلى الحديقة التي قرصها الصقيع ذات يومٍ قاتمٍ بعد الظّهر.

وقالت «بيث» الجالسة عند النافذة الأخرى:

ـ ثَمَّة حدثان مبهجان على وشك الوقوع. فـ«مارمى» قادمة في الطَّريق، و«لوري» يطوف في الحديقة وكأنَّه يريد أن يزفَّ إليها شيئًا.

ودخل كلاهما المنزل. وسألت السَّيِّدة «مارش» سؤالها المعتاد:

ـ هل وصلت أيَّة رسالةٍ من والدكنَّ يا بنات؟

ورنَّ الجرس فجأةً بحدَّة، ودخلت «حنَّة» تُعلن وصول برقيَّة.

عند سماع ذلك فضَّت السَّيِّدة «مارش» البرقيَّة، وقرأت السَّطرين الواردين فيها وارتمت بعدها في شبه غيبوبة.

قرأت «جو» البرقيَّة بصوت مرتعش:

السَّيِّدة «مارش»

زوجكِ مريضٌ جدًّا. احضري حالًا.

س. هيل

مستشفى بلانك، واشنطن.

استفاقت السَّيِّدة «مارش» ومدَّت ذراعيها إلى بناتها قائلةً، بنبرة لن يَنْسَيْنها أبدًا:

ـ سأذهب في الحال، ولكنَّني ربَّما أصل متأخِّرةً كثيرًا. بناتي الحبيبات ساعِدْنَني على تحمُّل الموقف!

وساد النحيب جوَّ المكان تخلَّلتْه كلمات مواساةٍ متقطعةٍ وهمساتٌ تخنقها الدمعات والعبرات.

•حزن الأسرة علي مرض عائلها•

لم تشأ الأمُّ أن تُضيع الوقت في البكاء، وسارعتْ إلى وضع غطاء رأسها، فيما سارعت «حنَّة» إلي تحضير أمتعتها.

وطلبت الأمُّ من «لوري» أن يرسل برقيَّة في الحال يخبرهم فيها أنَّها قادمة في قطار الصَّباح الباكر. كما طلبتْ من «جو» أن تخبر السَّيِّدة «كينج» أنَّها لا تستطيع الحضور غدًا.

وطلبت من «بيث» أن تطلب من السَّيِّد «لورنس» زجاجتين من الشَّراب تقدِّمهما هديَّةً لزوجها.

وسألت «إيمي» أن تنزل لتطلب من «حنَّة» تحضير صندوق الثياب الأسود، فيما طلبت من «ميج» أن تساعدها في تحضير أمتعتها.

انطلق كُلٌّ واحدٍ في اتَّجاه. وسرعان ما ظهر السَّيِّد «لورنس» مع «بيث» حاملًا معه كُلَّ ما يمكن أن يريح المريض، ووعودًا بحماية الفتيات ورعايتهنَّ طوال فتره غيابها.

وعرض الرَّجل مرافقتها، ولكن السَّيِّدة «مارش» ما كانت لتقبل أن يتكبَّد النبيل العجوز مشقَّة السَّفر.

وفجاه ظهر السَّيِّد «بروك»أمام «ميج» عند المدخل، وأبدى أسفه الشَّديد لها وعرض أن يرافق والدتها إلى واشنطن. شعرت «ميج» بامتنانٍ عظيمٍ، وأبدت ارتياحها لمرافقته أمّها في الطَّريق.

عاد «لوري» من بيت العمَّة «مارش» يحمل المبلغ المطلوب مع رسالة قصيرةٍ تقول فيها: إنَّها كانت تنتقد دومًا التحاق أخيها بالجيش وتتوجَّس شرًّا من وراء ذلك.

ولكن السَّيِّدة «مارش» لم تكترث للرّسالة وألقتْ بها في النَّار، وتابعت استعداداتها.

وفيما كان الجميع منهمكين في أعمالهم كانت «جو» لا تزال غائبةً عن المنزل ما أثار قلق الجميع. وخرج «لوري» ليبحث عنها، فإذا بها تعود وقد ارتسمت على وجهها تعبيراتٌ جعلت الجميع في حيره. وقدَّمت «جو» لوالدتها رزمه من النقود قائلةً:

ـ هذه مساهمه منّى لوالدي كي يكون مرتاحًا ويعود إلينا.

سألت الأمُّ ابنتها بقلق عن مصدر النقود، فطمأنتها «جو» وقالت إنَّها لم تحصل على النقود إلَّا من شيء يخصُّها..إنَّه شعرها الطَّويل، الذي أصبح

قصيرًا بعد القصّ. وحاولت «جو» وسط الدَّهشة التي رانت على الجميع أن تظهر اللَّامبالاة. ولكن حقيقة مشاعرها لم تخف على أحد.

وعندما ألحَّت عليها «إيمي» بالسؤال عن سبب فعلتها قالت «جو»:

ـ كنت توَّاقة إلى أن أُقدِّم شيئًا لوالدي.. فأمّي تقترض الكثير، و«ميج» قدَّمت راتبها عن ثلاثة أشهر.

• جو تقدم شعرها ثمنًا لشفاء والدها•

وراحت تقصُّ عليهنَّ بالتفصيل كيف باعت شعرها الطَّويل للحلاَّق، وكيف ساومها على ثمنه، وكم أسفت على شعرها الغالي. وتوجهت بخطابها إلى أمِّها قائلة:

ـ لقد احتفظتُ لكِ بخصلةٍ يا أمّي الحبيبة.

أخذت الأمُّ الخصلة وشكرت ابنتها وفي حلقها غصَّةٌ ومرارةٌ.

وساد جوٌّ من الوجوم. وانصرف الفتيات إلى النَّوم، ولكن «جو» لم تنم. كانت راقدة في الفراش بلا حراك. كانت حزينةً على شعرها، ولكن لم تكن نادمة. اخفت أحزانها وقالت لأختها «ميج» التي حاولت أن تواسيها:

ـ اعتبرى الموضوع منتهيًا.

وفيما هنَّ نائماتٌ عند منتصف الليل، كانت أمَّهنَّ تطوف بين أسرَّتهنَّ، تغطّى هذه أو تعدِّل مخدَّة تلك، وترنو إليهنَّ بحنانٍ داعيةً لهنَّ بالسَّكينة.

وعند الفجر، استيقظت الشقيقات الأربع ورُحن يتهيَّأن لوداعٍ مفعمٍ بالحبور والأمل.

بدا كُلُّ شيء غريبًا عندما نزلن إلى الأسفل..طعام الإفطار..وجه «حنَّة» ..كُلُّ شيءٍ بدا غريبًا.

أمَّا السَّيِّدة «مارش» فقد بدا عليها الشُّحوب وآثار القلق والأرق. وران الصَّمت على الجميع.

بيد أنَّ قرقعة عربه مقتربةٍ جعلَتْهُنَّ يتنبَّهن ويُصغين. إنَّها لحظه الفراق الصَّعبة. ولكنَّ البنات تجلدنَّ بالصبر، وقبَّلن أمَّهنَّ بهدوءٍ، وحاولن أن يلوِّحن لها بمرح حين همَّت بالرحيل.

كان «لوري» وجدَّه في وداعها. أمَّا السَّيِّد «بروك» فقد أظهر قدْرًا كبيرًا من الشَّهامة والرقَّة.

قالت الأمُّ مودِّعةً:

ـ الوداع يا أحبائي! ليباركنا الله ويحفظنا جميعًا.

وقبَّلت الجميع وهُرعتْ إلى العربة.

ما كادت الأمُّ تبتعد قليلًا حتى قالت «جو» :

ـ أُحسُّ بشيءٍ أشبه بالزلزال.

وعقَّبتْ «ميج» :

ـ يبدو لي أنَّ نصف البيت قد رحل.

صاحت «حنَّة» :

ـ والآن هيَّا إلى شرب القهوة يا حبيباتي..أبقاكنَّ الله ذخرًا للعائلة.

قالت «جو» وقد استردَّت روحها المعنويَّة:

ـ ليكن شعارنا الأمل والعمل.

كانت الأنباء الواردة من والدهنَّ، الذي انتعشت روحه بمجئ زوجته، تدعو إلى الاطمئنان.

وكان السَّيِّد «بروك» يوافيهنَّ بنشرةٍ يوميَّةٍ عن صحَّته. وكانت «ميج» بوصفها أكبر أفراد العائلة، هي التي تقرأ الرسائل، فيما راحت الأخوات يتبارين في كتابه الرسائل إلى والدَيْهِنَّ.

❊❊❊❊

الفصل الرابع عشر

كان القدر رحيمـًا..

Destiny was merciful ..

عادت الأمور تنتظم في المنزل بعد أن اطمأنَّت الفتيات إلى صحَّة والدهنّ. واقترحت «بيث» أن تذهب «ميج» إلى أسرة «هملز» التي أوصت والدتهنَ بها.

تحاملت «بيث» على نفسها، رغم ما بها من صداعٍ وبعد تقاعس أخواتها، وشقَّت طريقها وسط الريح القارسة، بعد أن ملأت سلَّتها بأشياءٍ حملتها لصِّغار تلك الأسرة الفقيرة.

وعادت «بيث» إلى المنزل في ساعةٍ متأخرةٍ في حالةٍ يرثى لها. سألتها «جو» عمَّا بها، فراحت تذرف دموعها وتقول

ـ لقد مات طفل السَّيِّدة «هملز» في حضني قبل أن تعود إلى البيت.

قالت «جو» وهى تأخذ شقيقتها بذراعيها:

ـ يا لأختي المسكينة! كم كان الأمر مرعبًا لكِ! كان علىَّ أن أذهب. لا تَبْكى لا عزيزتي. كيف تصرَّفْتِ؟

ـ بقيتُ حتى جاءت السَّيِّدة «هملز» مع الطَّبيب. قال الطَّبيب: إنَّه ميت. إنَّها الحمَّى القرمزيَّة. كنتُ حزينةً جدًّا، وبقيتُ معهم إلى أن طلبوا منّي الذَّهاب إلى البيت فورًا، وأن آخذ الترياق وإلَّا أُصِبْتُ بالحمَّى.

قالت «جو» برعب بعد أن لامت نفسها على تقاعسها:

ـ ماذا نفعل الآن؟

ولجأتا إلى «حنَّة» التي اقترحت استدعاء الطَّبيب وبقاء «بيث» في المنزل، على أن تبقى معها إحدى شقيقاتها لتعنى بها. كما اقترحت أن تذهب «إيمي» بدلًا من «بيث» إلى منزل العمَّة «مارش» .

احتجَّت «إيمي» باكيةً قائلةً إنَّها كانت تفضِّل الحمَّى على الذهاب إلى منزل السَّيِّدة «مارش» .ولكنَّ «لوري»استطاع أن يقنعها برقَّة واعدًا إيَّاها بأن يأتي لاصطحابها يوميًّا. فرضخت «إيمي»، وغادرت ساكنةً مع «لوري»، «جو» .

كان الطَّبيب قد شخَّص مرض «بيث» بأنَّه أعراض حمَّى. وتولت «حنَّة» القيام بأعباء العناية، وكذلك كرَّست «جو» نفسها ليل نهار لـ«بيث»، التي كانت تتحمَّل الألم من دون شكوى، إلى أن جاء وقت لم تعد فيه «بيث» تستطيع تمييز وجوه مَنْ حولها، وراحت تطلب أمَّها بتوسُّلٍ.

وفيما كانت «ميج» تفكِّر في إخبار والدتها بالأمر، جاءت أنباءٌ تزيد من أحزانهنَّ فقد علمْنَ أنَّ والدهنَّ أصيب بانتكاسةٍ تمنعه لفترةٍ طويلةٍ من العودة إلى البيت.

كانت الأيَّام حالكةً وشديدة الوطأة على قلوب الفتيات، فيما شبح الموت يُخيِّم على المنزل الذي كان عامرًا بالسَّعادة ذات يوم. كان الجميع يفتقدون «بيث» ويسألون عنها ويتمنَّون لها الشِّفاء العاجل.

كان يوم الأوَّل من يناير (كانون الثاني) يومًا شتويًّا شديدًا. فقد عصفت الرِّياح وهطلت الثلوج بقوَّةٍ. وعاد الطَّبيب «بانغز بيث» ذلك الصَّباح، وعندما جسَّ نبَضَها قال لـ«حنَّة» بلهجةٍ خافتةٍ:

ـ إذا كانت السَّيِّدة «مارش» تستطيع أن تفارق زوجها، فمن الأفضل استدعاؤها.

جاء «لوري» حاملًا رسالة تفيد بأنَّ صحَّة السَّيِّد «مارش» آخذةٌ بالتحسُّن ثانيةً. ولكنَّه وجد «جو» في غاية الاضطراب.

وأغرورقت عيناها بالدُّموع وهى تخبره بما قاله الطَّبيب بشأن استدعاء والدتها. ولكنَّ يد «لوري» الحانية التي أمسكت بيدها، استطاعت أن تعيد إليها الرَّاحة والثقة بالنفس. فقال لها مشجِّعًا:

ـ تأمَّلي خيرًا يا «جو» ستعود أمُّك قريبًا، وعندئذ يكون كُلُّ شيء على ما يرام.

وتابع مطمئنًا:

ـ لقد أبرقتُ إلى أمِّك البارحة وأجابني «بروك» بأنَّها قادمةٌ في الحال. ستكون هنا الليلة.

قفزت «جو» من مكانها وأحاطته بذراعيها وهى تبكى بدموع الفرح:

ـ أوه «لوري» ! أوه يا أمِّي! أنا سعيدةٌ للغاية!

قال الطَّبيب إنَّ بعض التغيير قد يطرأ على «بيث» حوالي منتصف الليل، وإنَّه سيعود عند ذلك.

اضطجعت «حنَّة» عند قائمه السرير وغرقت في نومٍ عميق. أمَّا «لوري» فقد اضطجع على السجَّادة وهو يحدِّق في المدفأة.

لم تنس الفتيات أبدًا تلك الليلة التي لم يعرفن فيها طعم النَّوم. كان المنزل صامتًا كالقبر. ولم يكن يُسمع سوى عويل الريّح.

ومرَّت ساعة بعد منتصف الليل، ولم يطرأ أيُّ تطوُّر. وغادر «لوري» إلى المحطة كي يستقبل السَّيِّدة «مارش». فيما تملَّك الفتيات خوفٌ مبهمٌ من تأخُّر الطَّبيب.

وعند السَّاعة الثانية صباحًا، تنبَّهتْ «جو» التي كانت واقفةً عند النافذة، إلى صوت حركةٍ في السرير. التفتتْ بسرعةٍ فوجدتْ أختها «ميج» منحنيةً وقد أخفت وجهها، فانتابتها فكرةٌ مرعبةٌ أن تكون «بيث» قد توفِّيت وأن «ميج» تخشى أن تُبلغها.

ولكنَّها أحسَّت بسعادةٍ غامرةٍ عندما وجدتْ نظره الألم على وجه أختها قد تلاشت فانحنت عليها وقبَّلتها فوق جبينها الرَّطب.

وسرعان ما استفاقت «حنَّة» من نومها ونظرتْ إلى «بيث» وجسَّت يدها وأصغت إلى حركه شفتيها، وقالت بدهشةٍ:

ـ لقد انقشعت الحمُّى. نومها طبيعيٌّ، وهى تتنفَّس بسهولةٍ.. يا إلهي العظيم.

وجاء الطَّبيب ليؤكِّد لهنَّ هذه الحقيقة ويخبرهنَّ أنَّها ستتماثل قريبًا للشِّفاء.

لم يكن لسَّعادتهنَّ حدودٌ..قالت «جو» :

ـ لو أنَّ أمّي تأتى الآن!

قالت «ميج» :

ـ سأضع لها هذه الوردة البيضاء في المزهريَّة حتَّى تكون هي ووجه أمِّي أوَّل شيء تراه عندما تستيقظ في الصَّباح.

لم تشرق الشَّمس في يوم من الأيَّام بمثل تلك الروعة كما أشرقت ذلك الصَّباح، ولم يبدُ العالم بهيجًا في عيون «جو»، و«ميج» المثقلة، كما بدا في ذلك اليوم. واكتملت سعادتهما بصوت «لوري» البشوش يُعلن عن وصول أمِّهما.

❋❋❋❋

الفصل الخامس عشر

الوصية

Commandment

فيما كانت هذه الأحداث تمرُّ بالأسرة كانت «إيمي» تمرُّ بأوقاتٍ عصيبةٍ في منزل العمَّة «مارش» الصَّارمة. كانت تريد أن تُعلِّمها في فترةٍ وجيزةٍ، ما تعلَّمته خلال ستين عامًا. وهذا ما جعل «إيمي» الطَّيعة الودودة تشعر نفسها وكأنَّها أسيرة.

كان عليها أن تقوم بكثير من الواجبات المنزلية المتلاحقة. ولم يكن لديها إلَّا اليسير من الوقت لدروسها أو راحتها.

أمَّا الأمسيات فكانت عذابًا حقيقيًّا لـ«إيمي»، إذ تُضطرُّ إلى سماع قصَّص السَّيِّدة العجوز المطوَّلة عن ذكريات شبابها. ولولا حضور «لوري» اليوميّ لتفقُّدها، ووجود الخادمة «إيستر»، لما كان بوسع «إيمي» أن تتحمَّل البقاء في ذلك المنزل المُضجر.

و«إيستر» امرأةٌ فرنسيَّةٌ عملت في خدمه السَّيِّدة «مارش» منذ زمنٍ طويلٍ. كانت تمضى أوقاتًا سعيدةً معها، وهى تستمع إليها تقُصُّ بعض قصَّص حياتها.

وكانت «إيستر» تسمح لـ«إيمي» أن تتفحَّص أشياء السَّيِّدة «مارش» الجميلة وحُليَّها الثمينة، التي أعجبت بها «إيمي» أيَّما إعجابٍ وتمنَّت لو تحظى بقطعةٍ منها.

تساءلت «إيمي» :

ـ أتمنَّى لو أعرف لمَنْ ستؤول هذه الأشياء الجميلة بعد وفاه السَّيِّدة»مارش؟

فقالت لها «إيستر» هامسة:

ـ ستؤول إليكِ والى أخواتكِ. لقد كنت شاهدةً على وصيَّتها.

فرحت «إيمي» كثيرًا وتمنَّت لو أن السَّيِّدة «مارش» تسمح لهنَّ باقتناء هذه الأشياء الآن.

وعزمت على أن تكتب وصيَّةً مشابهةً أُسوة بعمَّتها، وإن كانت لا تملك سوى أشياء بسيطة.

طلبت «إيمي» مساعده «إيستر» في كتابه وصيَّتها. كما طلبت توقيعها عليها كشاهدةٍ، وكذلك توقيع «لوري» كشاهدٍ ثانٍ. تناول «لوري» الوثيقة بجدِّيةٍ وراح يقرأ:

رغبتي الأخيرةُ ووصيَّتي

أوصت «إيمي» في هذه الوثيقة بكُلِّ لوحاتها وصورها والمئة دولار التي تملكها إلى أبيها يتصرَّف بها كما يشاء.

وأوصت إلى أمِّها بملابسها وصورتها وميداليَّتها، وخالص حبِّها. وأوصت إلى أختها «ميج» بخاتمها الأزرق (إذا حصلت عليه) وصندوقها الأخضر، وعقدها، ومخطَّط كتابها.

وأوصت إلى «جو» بدبُّوسها ومحبرتها البرونزية. وأوصت إلى «بيث» (إذا عاشت بعدها) بالدُّمى الخاصَّة بها ومرْوَحتها وحذائها. ولم تنس «إيمي» السَّيِّد «لورانس» من وصيَّتها.

تساءل «لوري» بعد أن قرأ الوصيَّة:

ـ مَنْ أدخل مثل هذه الفكرة في رأسكِ؟ هل أخبركِ أحد عن توزيع «بيث» لأشيائها بين أخواتها ومنهنَّ أنتِ؟ ومع هذه لم تفكِّر في كتابة وصيَّة!

أسفتْ «إيمي» لأنَّ أختها وزَّعت خصلاتٍ من شعرها على جميع أفراد الأسرة، في حين هي لم تفعل ذلك. وأردات أن تستدرك ذلك بفقرةٍ خاصَّةٍ تُلحقها بالوصيَّة!!

❊❊❊❊

الفصل السادس عشر

حلاوة الحب!

The sweetness of love

كان أوَّل شيء وقع عليه نظر «بيث» بعد أن استفاقت من رقْدَتها الطَّويلة، هو وجهه أمِّها والوردة الصَّغيرة. ولم تستطع وقد هدَّها الضَّعف والإعياء، سوى أن تبتسم وتعود إلى النَّوم ثانيةً.

قدَّمت «ميج»، و«جو» الطَّعام لأمِّهما وراحتا تُصغيان إلى حديثها عن والدهما، وعن وعد السَّيِّد «بروك» بالعناية به، وعن العاصفة التي أخَّرت عودتها إلى المنزل، وعن الوجه البشوش الذي استقبلها به «لوري» عند وصولها، وقد أخذ منها الإعياء والبرد والقلق كُلَّ مأخذ.

فرحت «إيمي» فرحًا غامرًا بلقاء أمِّها التي اصطحبتها إلى الكنيسة. وكان اللِّقاء مناسبة كي تفضي إليها بكُلِّ ما لديها.

وفيما كانت «إيمي» تشير إلى صوره السَّيِّد المسيح الصَّغير في حضن أمِّه العذراء مريم، لمحت أمُّها الخاتم في يدها. فأخبرتها «إيمي» أنَّه تقدمةٌ من العمَّة «مارش» التي قالت إنَّها تحبُّها وتريد أن تستبقيها عندها.

وكان رأى أمِّها أنَّها ما زالت صغيرةً على أن تضع في إصبعها أشياءك في تلك الأمسية، وفيما كانت «ميج» مشغولةً بكتابة رسالة إلى والدها تخبره

فيها بسلامة وصول أمِّها، تسلَّلت «جو» إلى غرفة «بيث» حيث كانت أمُّها، وأسرت إليها بحكاية العلاقة الحميمة ما بين «ميج»، والسَّيِّد «بروك»الذي يمنعه الخجل من مصارحتها.

سألتها الأمُّ وقد ارتسمت على وجهها علامة تعجُّبٍ:

ـ وهل تهتم «ميج» به؟

وحاولت «جو» أن تموِّه أو تنفى أنَّها لاحظت شيئًا محدَّدًا على أختها.

فقالت الأمّ:

ـ إذًا فأنتِ تتخيَّلين أنَّ «ميج» غير مهتمَّةٍ بـ «جون» ؟

سالت «جو» مُتعجبةً:

ـ مَنْ؟

قالت الأمُّ:

ـ السَّيِّد «بروك»، إنَّني أدعوه «جون» الآن. لقد كان مثال الإنسان الطَّيِّب في العناية بوالدك وبي. وكان صريحًا وشريفًا بشأن عواطفه نحو أختكِ. وقال إنَّه يريد أن يحصل على بيتٍ قبل أن يتقدَّم لطلب يدها. وطلب منَّا أن نسمح له أن يحبَّها ويعمل على إسعادها. إنَّه شابٌّ ممتازٌ، ولكنَّني لا أريد لأختكِ «ميج» أن تتزوَّج فهي صغيرةٌ جدًّا.

وأوصت الأمُّ ابنتها بألَّا تخبر أختها «ميج» بأيِّ شيءٍ، وقالت:

ـ أريد أن أراهما معًا حتَّى أستطيع أن أحكم على مشاعرهما بصورةٍ أفضل.

وتابعت الأمُّ:

ـ إنَّ «ميج» لا تزال في السَّابعة عشرة من عُمْرها. و«جون» يحتاج إلى سنواتٍ حتَّى يستطيع تأمين منزل لها. لقد اتَّفقتُ مع والدكِ على ألَّا تربط أختكِ بأيِّ رابطٍ أو زواجٍ قبل العشرين. إذا كان أحدهما يحبُّ الآخر فبوسعهما الانتظار وتذوُّق حلاوة الحُبّ. إنَّها فتاةٌ واعيةٌ وأعرف أنَّها ستعامله بطريقةٍ لبقة. أتمنَّي لها كُلَّ السَّعادة.

❊❊❊❊

الفصل السابع عشر

حماقة تنتهي بسلامٍ

Crap ends peacefully

تفحَّصت «ميج» وجهه «جو» في اليوم التَّالي بإمعان، وكأنَّها تحاول أن تقرأ ما تُخفيه من سرّ. لم تشأ «ميج» أن تستنطقها وتركتها لتُفصح عن سرِّها من تلقاء نفسها.

لاذت «جو» بالصَّمت مُتجاهلةً الموضوع، وخشيت في الوقت نفسه أن تلجأ إلى ملاذها «لوري» خشية أن ينتزع السرَّ منها. وهذا ما حاوله بالفعل بشتَّى الوسائل دونما جدوى.

واستطاع بالإلحاح أن يدرك أنَّ الأمر يتعلَّق بـ«ميج»، والسَّيِّد «بروك». وغاظه ألَّا يكون موضع ثقة مُعلِّمه فعزم على الانتقام.

وفي اليوم التَّالي، سلَّمت «جو» رسالةً مختومةً إلى «ميج»، ما أثار دهشة الأخيرة. وما كادت «ميج» تقرأ بضعة أسطرٍ حتَّى جفلت وندَّت منها صيحة فزعٍ:

ـ هذا خطأٌ فاحشٌ!

واتَّهمت «ميج» أختها «جو» بتدبير مكيدةٍ ونعتتها بعباراتٍ قاسيةٍ. نفت «جو» التُّهمة عن نفسها، وراحت تقرأ وأمَّها الورقة، التي ألقت بها «ميج» إليهما. كانت الرسالة المكتوبة بخطٍّ غير مألوف تقول:

عزيزتي الغالية «مارجريت»

لا أستطيع أن أكبح عواطفي أكثر من ذلك، وأريد أن أعرف مصيري قبل أن أعود. لا أجرؤ على إعلام والديكِ بعد، ولكنَّني أعتقد أنَّهما سيكونان راضيين عندما يعلمان أنَّ كلينا يهيم بالآخر. سوف يساعدني السَّيِّد «لورانس» في الحصول على موقعٍ مناسبٍ، وأنتِ يا غاليتي ستمنحينني السَّعادة. ألتمس منكِ ألَّا تخبري عائلتكِ بشيءٍ الآن، وأن ترسلي فقط كلمةً واحدةً تبعث على الأمل عن طريق «لوري».

المخلص لكِ جون.

صاحت «جو» بغيظٍ بعد قراءة الورقة:

ـ يا للوغد! سينال منّي تقريعًا شديدًا ولسوف أجبره على الاعتذار.

وأدركت الأمُّ هنا أنَّ في الأمر مكيدةً ما. وطلبت من «جو» أن توضح موقفها أوَّلًا. وأقسمت «جو» أنَّها لم تر هذه الورقة من قبل. كما أنَّ السَّيِّد «بروك» لا يمكن أن يكتب بأسلوبٍ كهذا.

وهنا فاجأت «ميج» الجميع:

ـ بل إنَّه يشبه أسلوبه!

واعترفت «ميج» بأنَّها أجابت عن رسالته. هنا طلبت منها أمُّها بلهجةٍ آمرةٍ أن تقصَّ عليها الحكاية كلَّها، فقالت «ميج» لـ

ـ تلقَّيت رسالته الأوَّلى من «لوري» الذي بدا لا يعرف شيئًا عن فحواها. قلقت في البداية، وأردت أن أُعلمكِ ولكنَّني آثرت ألَّا أخبركِ لأنَّني أعرف مقدار معزَّتكِ للسَّيِّد «بروك».اغفري لي يا أمّي. أشعر بسخافة موقفي الآن.

سألت السَّيِّدة «مارش» :

ـ ماذا قلتِ له؟

قالت «ميج» :

ـ قلتُ له إنَّني ما زلت صغيرةً على مثل هذه الأمور، وإنَّه ينبغي أن يتحدَّث إلى والدي، وشكرتُ له حُسْن معاملته وطلبتُ أن نظلَّ أصدقاء لفترةٍ طويلةٍ.

ابتسمت الأمُّ لجواب ابنتها، فيما صاحت «جو» باستحسانٍ:

ـ هيَّا تابعي يا «ميج» ماذا كان ردُّه؟

ـ كتب بأسلوبٍ مختلفٍ مؤكِّدًا أنَّه لم يكتب أيَّة رسالة حبٍّ.

وهنا أدركت «جو» وقد أصابها ما يشبه الدُّوار أنَّ «لوري» هو كاتب الرسالتين واحتفظ بالرِّسالة حتَّى يشمت بها لأنَّها لم تخبره بسرِّها.

قالت «ميج» :

ـ لا تحتفظي بأسرارٍ بعد اليوم. أعلمي أمَّكِ بكُلِّ شيء كما أفعل أنا.

أرادات الأمُّ أن تضع حدًّا لهذه المهازل على الفور، فطلبت من «جو» أن تحضر «لوري».وعادت به «جو» بالفعل دون أن تخبره بشيءٍ.

وعندما وصل ورأى وجه السَّيِّدة «مارش» المتجهِّم، أدرك على الفور جدِّيَّة الموقف. بقيت الفتاتان خارج غرفة الاستقبال. وطال الحور. وعندما دخلتا كان وجه «لوري»ينمُّ عن ندمه.

وعاد «لوري» يطلب المغفرة من «ميج» التي عاتبته بشدَّة في البداية، ثُمَّ عادت فغفرت له أمام توسُّلاته الصَّادقة.

وانفرجت أسارير الأمِّ، وشعر الجميع أنَّ الغمامة قد انزاحت.

❊❊❊❊

الفصل الثامن عشر

مناضلات صغيرات

Small fights

مرَّت بعد ذلك أسابيع هادئةٌ. ومع اقتراب عيد الميلاد، راحت «جو» تقترح احتفالاتٍ غريبةً احتفاءً بهذا العيد السَّعيد غير العاديّ. وبشَّرت أيَّامٌ عدَّةٌ من الطَّقس اللَّطيف بعيد ميلاد سعيد.

وشعرت «بيث» بنشاطٍ زائدٍ ذلك اليوم، وسارعت إلى ارتداء هديَّة أمِّها. وقالت وقد غمرها الجميع بالهدايا والمحبَّة:

ـ لو كان والدي هنا لكنتُ في قمَّة السَّعادة.

وردَّدت بعدها شقيقاتها الثلاث الأمنية ذاتها.

وأخذت السَّيِّدة «مارش» تقلِّب نظرها ما بين رسالة زوجها وابتسامة «بيث»، والحلية الذهبيَّة التي وضعتها بناتها على صدرها، ثُمَّ قالت بامتنان:

ـ هل يمكن أن أكون أسعد حالًا؟

فتح «لوري» باب غرفة الضُّيوف وأطلَّ برأسه بهدوء. كان سعيدًا بما استُقبل به من حُسن الضيافة وهو يقدّم هديَّته لأسره «مارش» في عيد الميلاد.

وفجأة دخل السَّيِّد «مارش» ومعه السَّيِّد «بروك».

• الفرحة الغامرة بعودة الأب الغائب سالمًا•

أذهلت المفاجأة الجميع لبرهةٍ وعقدتْ ألسنتهم. وسرعان ما امتدَّت الأذرع المشتاقة لتعانق الأب الغائب. وكان من بين هذه الأذرع «بيث» التي تحاملت على نفسها وفتحت باب غرفتها لتلقى بنفسها في أحضان والدها.

عمَّت السَّعادة المنزل وغمرته. ولم تنس السَّيِّدة «مارش» في ذروة سعادتها أن تشكر للسَّيِّد «بروك» عنايته الصَّادقة بزوجها. ولم ينس «بروك»بدوره أن يُذكِّر بأنَّ السَّيِّد «مارش» يحتاج إلى الرَّاحة.

كان عشاء الميلاد رائعًا، وعلى المائدة السَّيِّد «لورانس» وحفيده اللَّذان كانا مدعوَّين إلى العشاء. وعلى رأس المائدة جلس الأب وابنته «بيث» جنبًا إلى جنبٍ على كرسيَّيْن مريحَيْن.

شرب الجميع أنخاب الصحَّة، وتحدَّثوا، وغنَّوا، واستمتعوا بوقتٍ سعيدٍ حقًا. وما إنْ رحل الضُّيوف حتَّى تحلَّقت العائلة السَّعيدة حول المدفأة، وأخذت الفتيات يتحدَّثْن عن ذكريات العام الفائت، وما واجهن خلاله من صعاب.

قال الأب وهو يُقلِّب بين وجوه بناته الأربع:

ـ ما زال أمامكنَّ طريقٌ شاقٌ بعض الشَّيء أيتها المناضلات الصَّغيرات، ولكنَّكنَّ أبديتُنَّ جانبًا من الشَّجاعة، وأعتقد أنَّ الأعباء في طريقها إلى الانزياح عن طريقكنَّ.

دُهشت البنات وهنَّ يسمعن كلام والدهنَّ، وتساءلن عمَّا إذا كانت والدتُهنَّ قد أخبرته شيئًا.

قال الأب:

ـ لقد قمتُ باستكشافاتٍ كثيرة هذا اليوم.

وأمسك الأب بيد ابنته «ميج» وشدَّ عليها قائلًا:

ـ غاليتي «ميج» أنا فخورٌ بأن أصافح هذه اليد العاملة الصَّغيرة.

همست «بيث» التي كانت جالسةً في حضن أبيها:

ـ وماذا عن «جو» ؟ قل شيئًا عنها. لقد كانت شديدة الحنوِّ عليَّ.

قال الأب ضاحكًا:

ـ أنا لم أعد أرى «جو» الصَّغيرة التي تركتها منذ عام. أنا أرى اليوم «جو» الصبية التي تعرف كيف تلبس وتتحدَّث وتمشى. وأكاد افتقد ابنتي العنيدة، ولكن إذا كان الله قد أبدلني بها امرأةً قويَّةً ومُعينةً فسأكون في غاية الرضا.

قالت «إيمي» وهى تنتظر دورها:

ـ والآن جاء دور «بيث» .

قال الأب وهو ينظر إلى وجه «بيث» بحنان:

ـ لقد أعادكِ الله إليَّ سالمةً يا «بيث» وأرجو أن يوفِّقني في أن أحافظ عليكِ.

وبعد لحظه صمت، قال وهو ينظر إلى «إيمي» التي كانت جالسةً عند قدميه:

ـ لقد لاحظت أنَّ «إيمي» تقوم بالكثير من الواجبات المنزليَّة، وتُعنى بالآخرين، واستنتجت أنَّها تفكِّر في الآخرين أكثر من نفسها، وأنا فخورٌ بذلك. وسأكون فخورًا أكثر عندما أرى ابنتي المحبوبة والموهوبة تجعل الحياة جميلة لها وللآخرين.

سألت «جو» :

ـ فيم كنتِ تفكرين يا «بيث» ؟

ـ كنت اقرأ في «تقدُّم الرحَّالة» كيف وصل كريستيان وهوبنل إلى مرج أخضر مبهجٍ، بعد الكثير من المتاعب حيث يزهو الزَّنبق طوال العام، وحيث أقاما بسعادةٍ كما نفعل الآن، قبل أن يتابعا رحلتهما إلى غايتها.

قالت «بيث» ذلك ثُمَّ قامت من حضن أبيها وخطت خطوات نحو البيانو قائلةً:

ـ لقد حان وقت الغناء. سأحاول أن أغنّي أغنيه ابن الراعي التي سمعها الرحّالة. لقد وضعت اللَّحن من أجل والدي لأنَّه يحبُّ كلمات الأغنية.

❊❊❊❊

الفصل التاسع عشر

العشيقان يتأهبان للزواج

The lovers are ready to marry

تحلَّقت الأمُّ وبناتها في اليوم التَّالي حول السَّيِّد «مارش» وتركن كُلَّ شيء للاهتمام به والإصغاء إليه.

وكانت علامات القلق ترتسم على وجهي السَّيِّد والسَّيِّدة «مارش» وهما يتابعان «ميج» بنظراتهما. وبدا وكأنَّ ثمَّة مسالةً ما معلَّقة تحتاج إلى حلّ.

ولم تكن هذه المسالة سوى تحديد علاقة «جون» بـ«ميج». كانت «جو» ترى ضرورة حسم هذه المسالة، في حين ما كانت «ميج» تستطيع أن تبدى رأيًا، طالما أنَّ «جون»لم يتقدَّم لطلب يدها، فضلًا عن أنَّ والدها لا يزال يعتقد أنَّها صغيرة.

وفيما الأختان تتحاوران حول الرَّدِّ المناسب إذا ما تقدَّم «جون» لطلب يدها، إذا بـ«جون» يدخل ويلقى تحيَّة المساء عليهما، وقد بدا على وجهه الاضطراب. وقال مبرِّرًا مجيئه بأنَّه نسى مظلَّته، كما أنَّه يريد أن يتفقَّد صحَّة السَّيِّد «مارش» .

تسلَّلت «جو» من الغرفة كي تترك لـ«ميج» فرصةً للتَّحدُّث مع «جون». ولكن ما إنْ خرجت حتَّى انسحبت «ميج» بدورها نحو الباب قائلةً:

ـ أمّي تودُّ أن تراك. أرجو أن تجلس وسوف أطلبها.

قال لها السَّيِّد «بروك» وقد بدا متألِّمًا:

ـ لا تذهبي. هل أنتِ خائفةٌ منِّي يا «مارجريت» ؟

احمرَّ وجه «ميج» كمَنْ أحسَّ بأنَّه اقترف ذنبًا، وأدهشها أنَّه يخاطبها باسمها (مارجريت).ولمَّا كانت حريصةً على أن تبدو ودودةً وطبيعيَّةً، فقد قالت له إنَّها لا يمكن أن تخاف منه وقد كان طيِّبًا جدًّا مع والدها، وإنَّها لا تريد سوى أن تشكره.

• جون يحاول إقناع ميج بالزواج •

قال وهو يمسك يدها بكِلْتا يديه وينظر إليها بتوقٍ شديدٍ:

ـ هل أدُلُّكِ كيف تشكرينني؟

سحبت «ميج» يدها مذعورةً، وقالت وهي تحاول الانسحاب:

ـ لا، أرجوك.

وتابع السَّيِّد «بروك» برقَّةٍ:

ـ لا أريد أن أُزعجكِ. أريد أن أعرف فقط إذا كنتِ تهتمِّين بي. إنَّني أحبّكِ يا غاليتي كثيرًا.

أربكت المفاجأة «ميج» ونسيت كُلَّ ما كانت حضَّرت من كلمات لهذه المناسبة وألحَّ عليها «جون» ليعرف رأيها، وقال إنَّه لا يستطيع أن يعمل بحماسةٍ ما لم يحصل على هذه المكافأة.

قالت «ميج» بتعثُّر إنَّها لا تزال صغيرةً، وتابعت وهي تسحب يدها من بين يديه، إنَّها لا تستطيع أن تختار الآن، وطلبت منه أن يتركها ويمضي في سبيله.

شعر السَّيِّد «بروك»المسكين وكأنَّ أحلامه تنهار أمامه. ومع هذا، فقد ظلَّ متمسِّكًا بأهداب الأمل علَّها تغيِّر رأيها. ولكنَّ جواب «ميج» كان قاسيًا وقاطعًا: «لا تفكِّر بي مطلقًا» .

بدا السَّيِّد «بروك» حزينًا شاحبًا، ولكنَّه ظلَّ ينظر إليها برقَّةٍ وتوقٍ شديدٍ علَّ قلبها يرقُّ له.

في تلك اللَّحظة المثيرة، دخلت العمَّة «مارش» وكان دخولها المباغت مفاجأة أذهلت الاثنين. وراحت تقلِّب النظر بين وجه «جون» الشَّاحب ووجه «ميج» المتورِّد خجلًا، باستغراب.

وسألت العمَّة ابنة أخيها عمَّن يكون «جون»، وعن سرّ موقفها المرتبك. وحاولت «ميج» أن تتملَّص من الإجابة، ولكن العمَّة أصرَّت على معرفة كُلِّ شيء. وعندما عرفت شخصيَّته استشاطت غضبًا وحذَّرت «ميج» من هذا الزواج وهدَّدتها بحرمانها من الميراث إن هي ارتبطت بهذا الإنسان البسيط .

كانت العمَّة «مارش» تعرف كيف تثير روح المعارضة لدي الآخرين. وهذا ما حدث بالنسبة لـ«ميج» التي استفزَّها تحيُّز عمَّتها وإلحاحها، فاندفعتْ إلى رفض ما تقوله عمَّتها بعناد قائلةً:

ـ سأتزوَّج مَنْ أشاء يا عمَّتي «مارش»، وبوسعكِ أن تهبي نقودكِ لمَنْ تشائين.

اشتد غضب العمَّة لرفض «ميج» وأخبرتها أنَّها ستندم على تصرُّفها .ثُمَّ خفَّفت لهجتها وراحت تنصحها بالتفكير في الموضوع جديًّا، وأن تتعقَّل في اتِّخاذ قرارها، وإلَّا فإنَّها ستندم طوال حياتها.

• العمَّة مارش في بيت الأسرة •

وامتد بينهما حوارٌ ساخنٌ كانت العمَّة خلاله تحاول أن تُعيِّر «جون» بفقره وصغر شأنه، في حين انقلبت «ميج» إلى الدِّفاع عنه بحرارةٍ مُعدِّدة مزاياه وفضائله. ونفت بشدَّةٍ أن يكون «جون» يريد أن يستغلَّ علاقاتها الغنيَّة، واحتجَّت بشدَّةٍ على هذه الاتهامات المتحاملة قائلةً:

ـ جون لا يريد أن يتزوَّجني من أجل المال..نحن نريد أن نعمل معًا. أنا لا أخشى الفقر، فأنا سعيدةٌ حتى هذه اللَّحظة وسأكون سعيدةً معه

استشاطت العمَّة غضبًا من موقف ابنة أخيها، وهدَّدت بأنَّها ستغسل يديها من الموضوع برمته. وقالت إنَّها لن تمنحها أي شيء عند زواجها.

صفقت العمَّة الباب في وجه «ميج» وخرجت، تاركةً إيَّاها في بحرٍ من الحيرة. وقبل أن تستفيق من حالتها، فاجأها «جون» بأنَّه كان يستمع إلى الحوار كُلَّه، وهو يشكر لها دفاعها، وهذا ما يدلُّ على أنَّها مهتمَّةٌ به. وطلب إليها أن تدعه يبقى لأنَّه سيكون سعيدًا بذلك، فوافقته «ميج» وهي تخفي وجهها في صدره.

بعد دقائق قليلة من مغادرة العمَّة الغرفة، نزلت «جو» لتستطلع ما جرى بين أختها و«جون»، وما إذا كانت قد نفَّذت خطَّة استبعاده التي اتَّفقتا عليها. ولكنَّها بُغتت عند عتبة الباب بمفاجأةٍ أذهلتها. وندَّت منها صرخةٌ عندما رأت أختها في جلسةٍ حميمةٍ مع «جون». وعندما تنبَّه العاشقان قفزتْ «ميج»، في حين اقترب «جون» من «جو»، قائلًا بسعادةٍ:

ـ أختي «جو»، هنِّئيني!

لم تستطيع «جو» أن تتحمَّل الموقف وأجفلت مبتعدةً، وطلبت من والديها أن يتدخَّلا. ولم تتمالك نفسها من البكاء وهي تُخبر شقيقتيها «بيث»، و«إيمي» بهول ما رأت.

لم يدر أحد بالحديث الطويل الذي جرى بين الوالدين والسَّيِّد «بروك» في غرفة الاستقبال. ولكن عندما حان وقت العشاء، كانت السَّعادة باديةً على وجوه الجميع، وخصوصًا على وجهي «جون»، و«ميج» . وشعرت «جو» أنَّ كآبتها لا مبرِّر لها وسط سعادة كُلِّ مَنْ حولها .

قالت السَّيِّدة «مارش» :

ـ لقد هبَّت رياح التغيير..كُلُّ عائلةٍ تصادف سنةً مليئةً بالأحداث، حافلةً بضروب الأتراح والأفراح. تلك كانت حال السَّنة الأخيرة، ولكنَّها انتهت على خير في النهاية.

قالت «جو» :

ـ آمل أن تكون السَّنة المقبلة أفضل.

وقال «جون» وهو يبتسم لـ«ميج» :

ـ آمل أن تنتهي السَّنة الثالثة على أفضل ما يرام.

وكانت عبارة «جون» تدلُّ على أنَّه اتَّفق مع «ميج» ووالديها على فترة خطبةٍ تمتدُّ ثلاث سنواتٍ يعملان خلالها على تدبير أمورهما واستكمال استعداداتهما.

ودخل «لوري» يحمل الورود للخطيبين. وعمَّ الفرح جوَّ البيت الذي بدأت ترفرف فوقه أجنحة السَّعادة.

❊❊❊❊

الفصل العشرون

برج الحمام

Dovecote

لم يطرأ كثيرًا من التبدُّلات طوال السَّنوات الثلاث التَّالية على الأسرة الهادئة. انتهت الحرب وعاد السَّيِّد «مارش» آمنًا إلى بيته.

أمَّا «جون بروك» فكان يكافح برجولةٍ، ويكرِّس نفسه للعمل كي يوفِّر منزلًا لـ«ميج». وبسبب عصاميَّته الشَّديدة، رفض أكثر من عرضٍ سخيٍّ من قِبَل السَّيِّد «لورانس»، وآثر أن يكدَّ معتمدًا على نفسه.

وبخصوص «ميج» فقد كانت تمضى الوقت بين العمل والانتظار، وتزداد خبرةً بشؤون المنزل كما تزداد جمالًا. وكان المستقبل يزداد إشراقًا، حين كانت تجلس مع «جون» عند الغروب، وهما يتحدَّثان عم مشاريعهما الصَّغيرة.

وامتنعت «جو» عن الذهاب إلى بيت العمَّة «مارش» وتفرَّغت للأدب الذي كان يَدُرُّ عليها بعض النقود، بينما آثرت «إيمي» أن تظلَّ بجوار عمَّتها لأنَّها عرفت كيف تسايرها.

أمَّا «لوري» الذي كان قد التحق بالكلّية إرضاءً لجدَّه، فقد بات شغوفًا بـ«جو» إرضاء لمستقبله.

صار اسم البيت الذي هيَّأه السَّيِّد «بروك» لـ«ميج» برج الحمام. كان بيتًا مُنمْنَمًا ذا حديقةٍ صغيرةٍ خلْفه، ومدخلٍ معشوشبٍ ضيِّقٍ أمامه، حيث أرادت «ميج» أن تزرع الأزهار والشُّجيرات الخضراء الصَّغيرة، وفى وسطها نافورة ماء.لم يكن البيت باذخًا ولكنَّه كان ساحرًا بأثاثه البسيط وترتيبه الأنيق.

قالت السَّيِّدة «مارش» تسال ابنتها وهى تتأبَّط ذراعها وتدخل معها المملكة الجديدة:

ـ هل أنتِ راضية؟ هل يبدو لكِ منزلًا لائقًا وتشعرين بأنَّكِ ستكونين سعيدة هنا؟

وكان جواب «ميج» أنَّها تشعر بسعادةٍ لا توصف، وأنَّ الفضل في ذلك يعود إلى كُلِّ مَنْ حولها.

وتابعت مع أمِّها وأختها «بيث» تفقُّد أرجاء المنزل، ورحن يتندَّرن حول مواقف العمَّة «مارش» من حرمان «ميج» هديَّة الزواج

كان الجميع في انتظار «لوري» في زيارته الأسبوعية التي تعتبر حدثًا مهمًا في حياه تلك الأسرة الوادعة. ويأتي «لوري» حاملًا معه هديَّةً مُغَلَّفةً إلى «ميج». ولمَّا لاحظ نظرات الدَّهشة والاستفسار في عيون مَنْ حوله، قال:

ـ إنَّها شيءٌ مفيدٌ للمنزل في حاله الحريق أو السرقة. وما عليكِ إلَّا أن تهزّي هذا الجهاز إذا ما شعرتِ بالخوف حتَّى يوقظ الجوار في الحال.

وجرَّب «لوري» الجهاز أمامهنَّ إثباتًا لكلامه.

انفردت «جو» بـ «لوري» قليلًا وطلبت إليه تغيير سلوكه. وقالت له إنَّه يُبدِّد كثيرًا من المال على الآخرين، وإنَّ كرمه الزائد وطيبه قلبه، يجعلان الآخرين يطمعون في ماله. وانتقدت «جو» إسرافه في ملابسه وتأنُّقه المفرط.

كانت لهجة «جو» أقرب إلى التقريع، ومع هذا لم يُبدِ «لوري» استياءً، وأخذ الموضوع بشيءٍ من المزاح كعادته. وحاول أن يُغيِّر مجري الموضوع بالحديث عن فتى صغيرٍ يدعى «باركر» مولع بـ «إيمي». وقال إنَّه يتحدَّث عنها دائمًا ويكتب لها الشِّعر. ولعلَّ من الأفضل أن يضع حدًّا لهذا الموضوع من البداية.

قالت «جو» بشيءٍ من الحدَّة:

ـ طبعًا، فنحن لا نريد زيجةً أخرى في عائلتنا حتَّى سنواتٍ مقبلة.

قال «لوري» :

ـ الأيَّام تمضى بسرعةٍ والدَّور الآتي دورك.

قالت «جو» :

ـ لا تُكملْ، لا أحد يريدني.

قال «لوري»، وهو ينظر إلى «جو» نظرةً ذات معنى:

ـ إنَّكِ لا تدعين فرصةً لأحدٍ، ولا تظهرين الجانب الرقيق من شخصيّتكِ. وإذا ما وجد أحدهم بصيصًا من نور وحاول أن يبدى إعجابه، فسرعان ما تحبطينه، وتحتدُّ طباعكِ بحيث لا يعود أحد يجرؤ على لمسكِ أو النَّظر إليكِ.

قالت «جو» محتدَّةً:

ـ أنا لا أحبُّ تلك الأشياء. أنا مشغولةٌ جدًّا، ولا وقت عندي لمثل هذا الهراء. لا تقلْ مزيدًا في هذا الموضوع، فعرس «ميج» يشغلنا جميعًا.

قال «لوري» وهو يودّعها عند البوَّابة:

ـ تذكَّري يا «جو» أنَّكِ التالية.

❊❊❊❊

الفصل الحادي والعشرون

حياة الزوجية

Married life

بدت «ميج» كوردةٍ متفتِّحةٍ مثل أزهار يونيو(حزيران) في ذلك اليوم. كانت لا تريد الملابس الزاهية ولا عرسًا من الأعراس المُتعارف عليها. فهي تريد عرسًا لمَنْ تحبُّهم وتشعر بذاتها بينهم. ولقد أعدت ثوب عرسها بنفسها. وكانت الحلية الوحيدة التي تقلَّدتها زنابق الوادي التي يحبُّها «جون» أكثر من أيَّة أزهارٍ أخرى.

قالت «إيمي» وهى تُقلِّب نظرها في أختها بإعجابٍ:

ـ إنَّكِ تبدين كـ«ميج» التي عهدناها دومًا مع فارقٍ واحدٍ هو أنَّكِ اليوم جميلة جدًّا ورقيقة جدًّا، وكم أودُّ أن أعانقكِ لولا خوفي من أن افسد ثوبكِ.

فتحت «ميج» ذراعيها لشقيقتها، وقالت:

ـ قبِّليني ولا تبالي بثوبي.

بدت شقيقات العروس الثلاث في أبهى حلَّةٍ وأجمل زينةٍ بلباسهنَّ الفضِّيِّ ووجوههنَّ النضرة المستبشرة.

لم تكن هناك كما اتُّفق مظاهر احتفاليةً، وكان كُلُّ شيءٍ يبدو طبيعيًّا. ولهذا استهجنت العمَّة «مارش» عندما وصلت أن تجد العروس تُهرع

للترحيب بها، وأن تجد العريس وقد لفَّ حوله طوقًا من الأزهار، وقالت بلهجة استنكارٍ لابنة أخيها إنَّ على العروس أن تتصدَّر في مكانها حتَّى آخر لحظةٍ كي يراها الجميع.

أجابتها «ميج» مُحتدَّةً بأنَّها ليس للعرض، وأنَّ الحضور لم يأتوا كي يحدِّقوا فيها، أو ينتقدوا ثوبها، أو يُحصوا تكلفة المأدبة الصَّغيرة التي أعدَّتها. إنَّها سعيدة بما يقوله الآخرون وهى تريد أن تكون حفله العرس على هواها.

عمَّ سكوتٌ مفاجئٌ عندما وقف السَّيِّد «مارش» والعروسان تحت القوس وتحلَّقت حولهم الأمُّ وبناتها.

لم يسمع أحدٌ تقريبًا صوت العريس المرتعش، في حين قالت العروس بثقةٍ وصوت جليٍّ وهى تنظر في عيني عريسها:

ـ أوافق.

استطاعت «جو» اللَّصيقة بالعروس أن تحبس دموع الفرح. وأخفت «بيث» وجهها في صدر أمِّها، في حين وقفت «إيمي» شامخةً كتمثالٍ رشيق. كانت جبهتها ناصعة البياض كنور الشمس وشعرها قد ازدان بالأزهار.

أمَّا إن تمَّت آخر خطوةٍ في إجراءات الزفاف حتَّى بكت «ميج» قائلةً:

ـ أوَّل قبله لأمي.

وبدت العروس كوردةٍ مُتفتِّحةٍ وهى تتلَّقى التهاني. كان كُلُّ شيء على ما يرام رغم بساطته. وبعد تناول العشاء الخفيف تفرَّق المدعوّون في أرجاء المنزل والحديقة.

وتحلَّق الأزواج حول العروسين وراحوا يرقصون وقد تشابكت أيديهم، فيما اصطفَّ العزّاب من الجنسين أزواجًا أزواجًا. ورقص الجميع بمرح وسعادةٍ.

وتمنَّت العمَّة «مارش» السَّعادة للعروس وباركت لها وفي نفسها شيء من الغصَّة والانكسار.

لم يكن بيت الزوجية الصَّغير بعيدًا عن بيت أسره «مارش» .وكان على العروسين أن يخطوا خطواتٍ قليلةً حتَّى يصلا إلى عشِّ الزوجيَّة.

وعندما وصلت العروس إلى الباب بثوبها الأبيض الرائع، التفَّ الجميع حولها لوداعها. كانوا يتابعونها بوجوه ملؤها الحبُّ والأمل، وهى تبتعد متّكئةً على ذراع زوجها ويداها ممتلئتان بالورود.

وهكذا بدأت حياه «ميج» الزوجيَّة.

❊❊❊❊

الفصل الثاني والعشرون

الوليمة!!

The feast

يحتاج النَّاس إلى وقتٍ طويلٍ حتَّى يتعلَّموا الفرق بين الموهبة والعبقريَّة، ولاسيَّما لدى الطامحين من الشُّبَّان والشَّابَّات، غير أنَّ «إيمي» كانت تتعلَّم هذا الفرق بينهما من خلال الكثير من المحن.

فهي قد جرَّبت في البداية الرَّسم بالرِّيشة والحبر وأحرزت نجاحًا. ولكنَّها ما لبثت أن تحوَّلت إلى الرَّسم بالفرشاة والألوان، مستوحيه لوحاتها من الرِّيف والبحر، ومتأثِّرة بأعمال الرَّسامين الكبار. وجرَّبت بعد ذلك الرَّسم بالفحم كما استعملت الطَّين والجصّ.

ومع تقلُّبها في تجارب الفنِّ وممارساته، فهي لم تغفل الجانب الاجتماعيَّ من الحياة، فقد كانت تتعلَّم وتتمتَّع بأشياء أخرى، لأنَّها كانت تتطلَّع إلى أن تكون امرأةً لافتةً للنَّظر. واستطاعت بحصافتها أن تحقِّق نجاحًا في هذا المجال.

وذات يوم طلبت من والدتها أن تسمح لها بدعوة عددٍ من زميلاتها قبل أن ينقضي العام المدرسيّ، لقضاء يوم في أحضان الطَّبيعة، وأن تُحضّر لهنَّ بعض المأكولات والمشروبات. وقالت إنَّها ستستأجر عربة للنزهة تكفي لعدد المدعوَّات اللَّواتي تتوقَّع «إيمي» حضورهنَّ.

وجدت السَّيِّدة «مارش» أنَّ فكرة ابنتها ربَّما تكون باهظة التكاليف حتَّى وإن تطوَّعت «إيمي» أن تدفع هذه التكاليف من جيبها. واقترحت الأمُّ دعوةً أقلَّ كلفةً وأكثر تواضعًا، دعوةً مختلفةً عمَّا اعتادتْهُ زميلاتها من حفلاتٍ أو دعواتٍ باذخة.

إلَّا أنَّ «إيمي» أصرَّت على موقفها لأنَّها أرادت أن تظهر وليمتها بالمظهر اللائق. وافقت الأمُّ تاركةً الأمر إلى حسن تدبير ابنتها.

وسرعان ما ذهبت «إيمي» سعيدةً إلى شقيقاتها لتُطلعهنَّ على خطَّتها. وافقت «ميج» في الحال، وأبدت استعدادها لتقديم كُلِّ مساعدةٍ ممكنه. ولكنَّ «جو» امتعضتْ من الفكرة ووجدتْها مضيعةً للوقت والمال من دون طائل.

دافعت «إيمي» عن فكرتها بحرارةٍ، وعن زميلاتها اللَّواتي كنَّ طيِّباتٍ معها ويتمتَّعن بمواهب عديدةٍ، ورأت أنَّها من خلال مثل هذه المناسبات، تستطيع أن تكتسب مودَّة الآخرين، وتدخل المجتمعات رفيعة المستوى. وهذه أمور تحرص عليها.

وافقت «جو» على مساعده أختها على مضض. وسرعان ما أرسلت الدعوات. ولكنَّ هذه العجالة أدَّت إلى نوعٍ من الاضطراب في تحضير الأطعمة، كما أدَّت إلى سوء تقدير للتَّكاليف، فجاءت النَّفقات أكثر بكثير ممَّا توقَّعت «إيمي» .

وزاد الطِّين بلَّةً أنَّ كلًا من «بيث»، و«ميج» ولأسبابٍ قاهرة، اضطرتَّا إلى عدم مساعده «إيمي» في زحمه الاستعداد للوليمة. واعترفت «إيمي» بأنَّه لولا مساعدة أمِّها لما كان بوسعها أن تُنقذ الموقف.

بدا الغذاء في الموعد المُحدَّد رائعًا. وتعهَّدت الأمُّ، و«ميج» مسؤوليَّة الترحيب والاهتمام بالضُّيوف، في حين تطوَّعت «بيث» لمساعده «حنَّة» وراء الكواليس.

أمَّا «جو» فقد تعهَّدت أن تكون بشوشة لطيفة المعشر مع الجميع. وراحت «إيمي» تُمنّي النفس بتمضية أوقاتٍ سعيدةٍ بعد الغذاء، عندما تذهب مع رفيقاتها في جولةٍ فنّية.

خفَّت حماسة الأسرة مع هطول الأمطار قبل وقت الغذاء. ولكنَّ «إيمي» كانت واثقةً من حضور المدعوَّات، وانهمك كُلٌّ مَنْ في المنزل في إعداد الطَّعام وعند السَّاعة الثانية عشرة، كان كُلُّ شيء جاهزًا، فطلبت «إيمي» عربه النزهة وذهبت مسرعه للقاء ضيوفها.

سمعت السَّيِّدة «مارش» أصوات دبدبةٍ، فقالت:

ـ إنَّهنَّ قادماتٌ.

وهُرعت إلى الرّواق لاستقبالهنّ، ولكنَّها ارتدَّت خائبةً عندما لم تجد في العربة سوى «إيمي» وضيفةٍ واحدة. وصاحت على «بيث» كي تساعد «حنَّة» في إعادة ترتيب المائدة، إذ سيكون من السّخيف وضع كُلِّ هذه الصُّحون والطَّعام لضيفةٍ واحدة.

ورغم هذا فقد كانت «إيمي» سعيدةً برفيقتها الوحيدة التي لبَّت الدَّعوة. وسُرَّت الآنسة «أليوت» بجوِّ البهجة من حولها.

وبعد الغذاء اصطحبت «إيمي» رفيقتها في جولةٍ قريبةٍ دامت حتَّى الغروب. وعندما عادت مساءً متعبةً، كان كُلُّ أثر للنُّزهة قد اختفى.

كانت «إيمي» حزينةً لما أصابها من خيبة أملٍ، فقالت بأسى:

ـ أشعر بالغثيان من منظر الطَّعام، ولا داعي للإكثار من الأكل حتَّى لا تُصَبْن بالتخمة مثلى فتؤذين أنفسكنَّ.

علَّقت «جو» ساخرةً على عودة «إيمي» مع ضيفةٍ واحة. أمَّا الأمُّ فقالت مواسيةً:

ـ أنا آسفةٌ جدًّا لشعورِكِ بخيبة الأمل، ولكنَّنا جميعًا بذلنا كُلَّ ما في وسعنا لإرضائكِ.

قالت «إيمي»، وفي صوتها رعشةً:

ـ أنا راضيةٌ. لقد قمتُ بما التزمتُ به، وليس خطئي أنَّني أخفقت وهذا عزائي. أشكركنَّ جميعًا على مساعدتي. وسأشكركنَّ أكثر إن لم تُلَمِّحن إلى هذا الموضوع طوال شهر.

لم يُثر أحدٌ هذا الموضوع طوال شهورٍ، ولكنَّ كلمة «وليمه» كانت تبعث على الابتسام بين الجميع.!

❊❊❊❊

الفصل الثالث والعشرون

الجائزة

the prize

ابتسم الحظُّ لـ«جو» فجأةً، وكانت قد عادت تمارس هواية الكتابة الأدبيَّة بهمةٍ ونشاط. وعندما كان يأتيها الإلهام، كانت تستغرق في كتابة أحداث روايتها.

وذات يومٍ، اصطحبت الآنسة «كروكر» لحضور محاضرةٍ تاريخيَّةٍ. وفى قاعة المحاضرات، تعرَّفت إلى شابٍّ كان جالسًا بجوارها مُستغرقًا في قراءه جريدة. ولمَّا وجدها الشَّابُّ مهتمَّةً بما يقرأ، أعطاها نصف الجريدة، قائلًا:

ـ هل تريدين القراءة؟ إنَّها قصَّةٌ رفيعة المستوى.

وقرأت «جو»، وسرعان ما غرقت في تفاصيل القصَّة وأحداثها.

وعندما سألها الفتى عن رأيها في القصَّة بعد أن أتمَّت قراءتها، قالت له:

ـ اعتقد أنَّنا نستطيع أن نكتب مثلها إذا حاولنا.

فأجابها الفتى بأنَّ الذين يكتبون مثل هذه القصَّص يكسبون جيِّدًا. وأشار إلى اسم الكاتبة تحت العنوان.

بدأت المحاضرة، ولكنَّ «جو» لم تُلقِ لها بالًا. كانت مشغولةً بالتفكير في الكتابة إلى الصَّحيفة، وفي الجائزة التَّي يمكن أن تحصل عليها لقاء قصَّة عاطفيَّة.

وما إن انتهت المحاضرة ونهض الحاضرون، حتَّى كانت عناصر القصَّة قد تجمَّعت في مخيِّلتها وراحت تستعرضها في ذاكرتها.

لم تنبئ «جو» أحدًا عن خطَّتها، وانكبَّت على كتابة قصَّتها. وعندما فرغتْ أرسلتها بالبريد إلى الصَّحيفة مشفوعةً بملاحظة تقول: «إ ن لم تنل القصَّة الجائزة، فأنا سأكون سعيدةً بأيَّة مكافأةٍ تستحقُّها».

كانت الأسابيع الستّة فترةً طويلةً، حتَّى كادت «جو» تفقد الأمل في نشر قصَّتها. ولكنَّ رسالةً وصلتها أحيت الأمل في نفسها من جديدٍ، إذ ما إن فتحتْها، حتَّى سقط في حضنها شيك بمئة دولار. وبعدما استفاقت من المفاجأة، أخذت تقرأ الرِّسالة وتبكى، فقط كانت الرِّسالة بالنسبة إليها أثمن من الجائزة، لأنَّها كانت حافلة بعبارات الثناء والتشجيع.

بدت «جو»شديدة الفخر والاعتزاز بنفسها عندما فاجأت أفراد الأسرة والرِّسالة في إحدى يديها والشيك باليد الأخرى، مُعلنةً فوزها بالجائزة

عمَّ البِشر الجميع، وراحت أختاها تتخاطفان الجريدة لقراءة القصَّة إلَّا أنَّ والدها اكتفى بهزِّ رأسه قائلًا:

ـ تستطيعين تقديم ما هو أفضل يا «جو»، تطلَّعي نحو الأسمى ولا تفكِّري في النقود.

قالت «إيمي» :

ـ أظنُّ أنَّ النقود هي أفضل ما في الموضوع. ماذا تنوين أن تفعلي بثروةٍ كهذه؟

أجابت «جو» بسرعةٍ:

ـ أودُّ أن أرسل أمّي، و«بيث» إلى شاطئ البحر لقضاء شهر أو اثنين هناك.

صاحت «بيث» :

ـ أوه! يا لها من فكرةٍ رائعةٍ. ولكنَّني لا أستطيع ذلك لأنَّني سأكون أنانيَّةً إن فعلت.

قالت «جو» :

ـ بل ستذهبين. هذا ما كنت أفكِّر فيه. وهذا ما جعلني أنجح.

وأخيرًا، ذهبت الأمُّ وابنتها «بيث» إلى شاطئ البحر. وكانت «جو» سعيدة راضية عن الوجه الذي أنفقت فيه جائزتها. وانصرفت إلى العمل مستبشرة، وربحت الكثير من الجوائز التي كانت تنفقها في تسديد بعض نفقات المنزل في ذلك العام.

لم تلفت قصَّص «جو» الأنظار كثيرًا، ولكنَّها كانت تجد سوقًا رائجةً للنشر، وهذا ما شجَّعها على إعادة نسخ روايتها، وتقديمها إلى إحدى دور النَّشر التي اشترطت لنشرها أن تُختصر إلى ثلث حجمها. وطُبعت بالفعل ونالت جائزةً نقديَّةً مقدارها ثلاثمئة دولار.

الفصل الرابع والعشرون

ليس في الحب الحقيقي .. كبرياء

Not in true love .. Pride

بدأت «ميج» حياتها الزوجيَّة بالتَّصميم على أن تكون سيِّدة منزل نموذجيَّةً. فالبيت ينبغي أن يكون فردوسًا لـ«جون» الذي ينبغي أن تستقبله دومًا بابتسامة، وأن توفِّر له كُلَّ أسباب الرَّاحة.

وكانا زوجين سعيدين حتَّى بعدما اكتشفا أن ليس بالحُبِّ وحده يحيا الإنسان. كانا يشعران أنَّ بيتهما الصَّغير هو عشُّهما الهانئ، وأنَّ حياتهما الزوجيَّة ينبغي أن تسير نحو الأفضل.

لم تخلُ بداية حياة «ميج» الزوجيَّة من بعض المآخذ الصَّغيرة، وخصوصًا في تحضير بعض أصناف الحلوى. ولكنَّها لم تَدَعْ مثل هذه الهموم تشغلها.

وكانت تُحدِّث نفسها باعتزاز: «يستطيع زوجي أن يُحضر مَنْ يشاء من أصدقائه. سأكون مستعدَّةً دومًا: بيتٌ أنيقٌ ومرتَّبٌ، وزوجةٌ تُشيع البهجة، وطعامٌ لذيذ، وترحابٌ جيِّد».

وكانت سعادة «جون» ببشاشة زوجته وحُسن ترتيبها لا توصف، وكان حريصًا بدوره على ألَّا يحضر أحدًا من أصدقائه معه إلى المنزل من دون أن يُعلِم زوجته مسبقًا بذلك.

وذات يوم عاد «جون» إلى»عشِّ الزوجيَّة»فوجد الباب مغلقًا خلافًا للمألوف، والسَّتائر مسدلةً، وزوجته التي تعوَّد أن تستقبله بالتّرحاب غير موجودة. وخشي أن يكون قد أصابها مكروه. فطلب إلى صديقه«سكوت» أن يتفقَّدها في الحديقة، فيما راح هو يدور حول المنزل، وقد اشتمَّ رائحة سكَّر محروق.

• ميج تفشل في صنع الجيلي•

كانت الفوضى تسود المطبخ، و«الجِلي» المحروق مسكوبًا على الأرض، والسَّيِّدة «بروك» تجهش بالبكاء بحرقةٍ.

فاندفع «جون» نحوها ملهوفًا يسألها عمَّا حدث. ألقت «ميج» بنفسها على كتفيه مستنجدة وقد بدت عليها مظاهر الإعياء والاضطراب.

سألها «جون» بلهفةٍ وهو يُقبِّلها بحنانٍ:

ـ ما الذي يُقلِقك يا حبيبتي؟ هل أصابكِ مكروه؟

قالت «ميج»، وهي تبكي:

ـ نعم. «الجِلي» لا يريد أن يجمد، ولا أعرف ماذا أفعل؟

عندئذ ضحك «جون» كما لم يضحك من قبلُ، وابتسم صديقه «سكوت»، في حين هدأت مخاوف زوجته»ميج.

قال لها «جون» :

ـ لا تهتمي لـ«الجِلي» واقذفي به من النافذة!

ولكن «ميج» عادت إلى البكاء عندما علمت أنَّ زوجها قد دعا«سكوت» إلى الغذاء. وعاتبته لأنَّه لم يُعلِمها من قبلُ. وقالت إنَّها لم تحضِّر شيئًا للغداء لأنَّها كانت مشغولة بـ«الجِلي» .

استاء «جون» من هذا الوضع، فقد كان جائعًا مُتعبًا، كما وجد الفوضى ضاربةً في كُلِّ مكان، والمائدة فارغةً، وزوجته معكَّرة المِزاج. ولكنَّه كتم غيظهُ لأنَّ الجوَّ كان مشحونًا بالتوتُّر. وطلب من زوجته أن تساعده، رغم الفوضى التي تعمُّ المطبخ، في تحضير بعض ما هو موجود بالمنزل من جبنٍ وخبزٍ ولحمٍ باردٍ ولكن من دون «جِلي».

فقدت «ميج» المُحْبَطَة والمُتْعَبة، صبرها عند سماعها العبارة الأخيرة. وطلبت من «جون» أن يصطحب ضيفه ويرحل لأنَّه لن يحصل على شيء عندها. ودخلت غرفتها غاضبة.

لم تعلم «ميج» ماذا جرى بعد ذلك، ولكنَّ خادمتها «لوتى» أخبرتها أنَّهما أكلا كثيرًا وضحكا كثيرًا، وأنَّ سيِّدها أمرها بأن تلقى خارجًا بكُلِّ ما له علاقةٌ بتحضير«الجِلي» .

أرادت «ميج» أن تُعلم والدتها بما حدث، ولكنَّ شعورها بالخجل من جرَّاء تقصيرها، وحبَّها لـ «جون» منعاها. وبدلًا من ذلك، تزيَّنت لزوجها وأرادت أن تطلب منه السَّماح. وعلى الرغم من أنَّ «جون» كان غاضبًا ومحرجًا أمام ضيفه، إلَّا أنَّه كان ينتظر مبادرةً لطيفةً من «ميج» .

كانت تجربه ذلك النَّهار مناسبةً كي يراجع كُلُّ واحد منهما موقفه وأن يجد العذر للآخر. وكان كلاهما راغبًا في أن يعتذر لشريكه، ولكنَّ كُلَّ واحد منهما تمسَّك بكبريائه.

وران بينهما صمت يبعث على الضّيق. وفيما دفن «جون» وجهه في جريدته، راحت «ميج» تُلهى نفسها بالخياطة. وسرح ذهنها وتذكَّرت نصائح أمِّها الثمينة الغالية حول طريقه معاملة زوجها. كانت هذه النصائح ترنُّ في أذنها واحدةً تلو الأخرى. عندئذٍ، تنبَّهت إلى موقفها وراحت تراجع نفسها. وسرعان ما تغلَّب كُلٌّ منهما على كبريائه واستسمج الآخر وقبَّله بودّ.

وكان خير اعتذار من جانب «ميج» دعوتها لصديق زوجها السَّيِّد «سكوت» إلى الغداء والترحيب به بحفاوةٍ بالغةٍ.

وتدور الأيَّام ويعود «لوري» ذات يوم إلى «برج الحمام» فتستقبله «حنَّة» بالزغاريد. ويسأل بلهفةٍ عن الأمِّ الصَّغيرة فتطمئنه «حنَّة». وسرعان ما ظهرت «جو» . كانت تبدو هادئةً ولكنَّ عينيها كانتا تبرقان. طلبت منه أن يُغمِض عينيه، وأغمض «لوري» عينيه، وتَعالَتْ ضحكات الجميع. وما إنْ فتحهما ثانيةً حتَّى وجد بين يديه طفلين رضيعين، واستمرَّ الجميعُ بالضَّحك وضحك «لوري» معهم.

قالت «جو» عندما استعادت أنفاسها:

ـ إنَّها مداعبة حلوةٌ أليس كذلك؟ فأنا لم أشأ أن أخبرك لأنَّني أردتها أن تكون مفاجأة.

واعترف «لوري» بأنَّها أكبر مفاجأة في حياته. ويُسرُّ كُلَّ السُّرور لعلمه أنَّ التوأمين صبيٌّ وصبية. واتَّفق الجميع، بعد العديد من المداولات، على تسمية الصَّبيّ «ديميجون» وتدليله باسم «ديمي»، والصبية «مارجريت» وتدليلها باسم «ديزى».

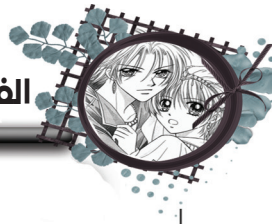

الفصل الخامس والعشرون

شقيقتان متناقضتان

Two contradictory sisters

تجادلت الشَّقيقتان «جو»، و«إيمي» حول قبول دعوه أسره «تشيستر» لهما. كانت «جو» كعادتها، عازفةً عن قبول الدَّعوات، ولكنَّ «إيمي» ألحَّت عليها كي تصطحبها.

وأمضت الأختان وقتًا طويلًا في اختيار الملابس والزينة المناسبة. وانطلقتا أخيرًا لتلبية الدَّعوة. وفى الطريق، لم تنس «إيمي» أن تُلفت انتباه أختها «جو» إلى ضرورة عدم إبداء أيَّة ملاحظاتٍ فجَّةٍ، أو ارتكاب أيِّ تصرُّفٍ غريب، فوعدتها أن تَلْزَم الصَّمت وأن تكون في غاية الهدوء.

ومع ذلك، فقد أساءت «جو» التصرُّف مع السَّيِّدة «تشيستر» التي حاولت أن تجاذبها أطراف الحديث. والتزمت الصَّمت من دون مبرِّر. وهذا ما أغاظ السَّيِّدة «تشيستر»، كما أغاظ أختها «إيمي»، التَّي شعرت بالخيبة لأنَّ أختها خذلتها.

وقالت لها مُوبِّخةً:

ـ كيف تفعلين ذلك بي؟ أردتُكِ أن تتصرَّفي باتِّزانٍ ووقارٍ، لا أن تكوني جامدة كالحجر. حاولي أن تكوني اجتماعيَّةً ومتحدّثةً كسائر الفتيات، واهتمّي بمظهركِ وحركاتكِ.

وعدتْ «جو» شقيقتها أن تُغيِّر سلوكها وأن تثرثر وتقهقه. وسرعان ما غيَّرت في سلوكها وتحوَّلت من الإفراط إلى التفريط. وهال «إيمي» ـ مرَّة أخرى ـ وهى تجد أختها تخوض في أحاديث لا معنى لها أو تلقى الكلام جُزافًا.

ولم تجد سبيلًا إلى التخلُّص من هذا الإحراج، وخصوصًا عندما اختصرت أختها الزيارة بصورةٍ مفاجئةٍ ومقتضبةٍ، وهذا ما جعلها تخرج من الغرفة مسرعة.

قالت «جو» بعد أن خرجتا:

ـ ألم أفعل ما يجب علىَّ أحسن ما يرام

وكان جواب «إيمي» السَّاحق:

ـ لا شيء يمكن أن يكون أسوأ ممَّا فعلتِ. ما الذي دعاكِ إلى مثل هذه الأحاديث الفارغة عن أمتعتي؟

ـ لقد كان الأمر مسلِّيًا للجميع. إنَّهم يعرفون أنَّنا فقراء، فلا داعي للتَّظاهر بأنَّنا نملك أشياء رائعة مثلهم.

ـ لم يكن من داعٍ كي تكشفي لهم فقرنا.

بدت «جو» مرتبكة، وقالت:

ـ كيف تريدينني أن أتصرَّف؟

فقالت «إيمي»، باقتضابٍ:

ـ تصرَّفي على سجيَّتكِ. لقد يئست منكِ.

كان المكان يعجُّ بالفتيان. وعزمت «جو» أن تستمتع بوقتها معهم. أمَّا «إيمي» فقد توجَّهت إلى السَّيِّد «تيودور»، الذي تكنُّ لأسرته احترامًا كبيرًا. ولكنَّ حديثها الممتع مع ذلك الشَّابِّ النبيل، لم يُثنها عن البحث عن أختها «جو» .

كانت «جو» جالسةً على العشب وسط مجموعة من الفتيان تتحدَّث عن واحده من مهازل «لوري»، غير آبهةٍ باتّساخ ملابسها.

قالت لها «إيمي»، وهى تتجنَّب إبداء ملاحظةٍ تتعلَّق بثوبها ومظهرها:

ـ لماذا تتجنَّبين السَّيِّد «تيودور» دومًا؟

ـ أنا لا أحبُّ معشره. إنَّه يتحدَّث عن أهله من دون احترام.

ـ ينبغي أن تعامليه بطريقةٍ مُهذَّبةٍ على الأقلّ، سيكون من اللائق أن تغيِّري سلوككِ نحوه.

فرفضت «جو»، وامتعضت «إيمي» منها مُجدَّدًا.

اتجهت الفتاتان بعد ذلك إلى زيارة عمَّتهما السَّيِّدة «مارش» بعد ممانعةٍ من «جو» .كانت العمَّة «مارش» منهمكةً في حديثٍ مع العمَّة «كارول» عندما دخلت الفتاتان. وسرعان ما استطاعت «إيمي» بذكائها وحُسن تصرُّفها أن تكسب ودَّهما، وتشاركهما في أحاديثهما.

وهذا ما جعل السَّيِّدة «مارش» تثنى على «إيمي» وتُبدى إعجابها بها وبزيارتها لأسره «تشيستر» في حين لم ترقْ ملاحظات «جو» للعمَّة «مارش»، والسَّيِّدة «كارول» اللَّتين راحتا تتبادلان نظرات تنمُّ عن استهجانٍ لتصرُّفات «جو» وطريقتها في الحديث عن الآخرين أو عن نفسها، خلافًا لشقيقتها «إيمي» التي كانت تتصرَّف بكثير من اللباقة والكياسة.

وهذا ما ترك أجمل انطباع لدى العمَّة «كارول» التي صمَّمت على أن تساعد «إيمي» على تحقيق أمنيتها في السفر إلى روما ذات يوم.

❊❊❊❊

الفصل السادس والعشرون

الجزاء من جنس العمل!

Retribution of the work type

كانت الدَّعوة إلى معرض السَّيِّدة «تشيستر» بمثابة تكريمٍ وتشريفٍ لكُلِّ مَنْ يُدعى إليه. وكانت كُلَّ سيدِّه في الجوار تهتمُّ لحضوره. وقد وُجِّهت الدَّعوة إلى «إيمي» في حين لم تُدْعَ «جو» لحضور المعرض. وكان كُلُّ شيء يسير على ما يرام قبل يوم واحدٍ من الافتتاح، لولا حدوث أحد أهم المنغِّصات التي لا يمكن تجنُّبها عند التحضير لعملٍ جماعيٍّ كهذا.

كانت «ماي تشيستر» تشعر بالغيرة، لأنَّ «إيمي» كانت مُفضَّلةً عليها، فالعمل الفني الذي قدَّمته «إيمي» كان أفضل ممَّا قدَّمت «ماي»، و«تيودور» الذي كان محطَّ الأنظار، رقص أربع مرَّاتٍ مع «إيمي» في حين لم يرقص إلَّا مرَّة واحدةً مع «ماي». هذا بالإضافة إلى تسرُّب شائعةٍ تقول إنَّ ابنتي أسره «مارش» تسخران منها.

وتضافرت هذه العوامل لتدفع بالسَّيِّدة «تشيستر» إلى أن تسحب طاوله عرض رئيسةٍ من «إيمي»، كانت أمضت وقتًا طويلًا في ترتيبها على أحسن وجه، وتُعطيها إلى بناتها. حينها شعرت «إيمي» بأنَّ هناك شيء مريب غير مفهوم. وقالت معبِّرةً عن استيائها للسَّيِّدة «تشيستر» :

ـ لعلَّكِ تفضِّلين ألَّا آخذ أيَّة طاولة.

قبلت «إيمي» عرض السَّيِّدة «تشيستر» على مضضٍ، بالانتقال إلى منصَّةٍ أخرى، دون أن تأبه أو تهتم إلى تذرُّعها بأسبابٍ واهيةٍ، أو إلى ملاحظات «ماي»التي حاولت أن تلطِّف من الموقف. وشعرت الأخيرة بالاكتئاب والندم، وتمنَّت لو أنَّها لم تدفع أمَّها إلى هذا التغيير. وكذلك شعرت السَّيِّدة «تشيستر» بالندم.

كان الوقت ضيِّقًا على «إيمي» كي تعاود تحضير منصَّتها من جديد، فضلًا عن انشغال كُلِّ مَنْ حولها بما يخصُّه. وشعرت أنَّ كُلَّ شيء يسير في اتِّجاه معاكسٍ لرغبتها.

ولكنَّها صمَّمت على أن تصمد وتثبت جدارتها، بدلًا من أن تستسلم للغضب، ووافقتها أمُّها على موقفها هذا وشجَّعتها عليه.

وفي اليوم التَّالي شعرتْ «ماي تشيستر» بأنَّها لا تستطيع أن تعرض المشغولات الجميلة التي وضعتها «إيمي» على المنصَّة التي كانت لها. واقترحتْ إحدى رفيقاتها اللَّواتي كنَّ إلى جانبها، أن تعيد «إيمي» معروضاتها إلى المنصَّة. سمعت «إيمي» كلامهما وهما تتهامسان، ووافقت فورًا على فكره إعادة معروضاتها، وقامت بذلك بالفعل. وهذا ما أثار إعجاب بعض رفيقات «ماي».

استعادت «إيمي» روحها المعنويَّة، كما استعادت منصَّتُها جمالها وحُسن ترتيبها، بما أضفت عليها يداها الماهرتان من رونقٍ، وكان نهارًا طويلًا وشاقًّا بالنسبة إليها إذ جلستْ وحيده خلف منصَّتها.

كانت منصَّة «إيمي» الفنيَّة، المنصة الأكثر جاذبيَّةً في قاعه المعرض، وكان المدعوُّون يتحلَّقون حولها طوال النَّهار. وعندما عادت إلى البيت في

ساعةٍ متأخِّرةٍ من اللَّيل كان الإعياء باديًا على وجهها الشَّاحب من عناء يومٍ طويلٍ.

تمنَّت «إيمي» في اليوم التَّالي أن تعزِّز منصَّتها بمزيدٍ من الأزهار، كي تصبح أكثر جاذبيَّةً ولفتًا للأنظار. وقام «لوري» وأصدقاؤه بمساعدتها على جلب الأزهار الجميلة وترتيبها، وأشاعوا جوًّا من الحيويَّة حول المنصَّة.

وكان العرض بمثابة نجاحٍ عظيمٍ لها. إذ نجحت في بيع كُلِّ ما كان علي منصتها من أزهارٍ.

وبعد أسبوع تلقت السَّيِّدة «مارش» رسالة من العمَّة «كارول» أدخلت السُّرور إلى قلبها. ولمَّا ألحَّت عليها ابنتيها «جو»، و«بيث» كي تطلعهما على مضمون الرِّسالة، قالت السيِّدَّة «مارش» إنَّ العمَّة «كارول» تريد أن تسافر الشهر المقبل، وهى تريد من «إيمي» أن تُرافقها.

قالت «جو» معترضةً، وقد فوجئتْ بالأخبار:

ـ أوه، ماما إنَّ «إيمي» لا تزال صغيرةً جدًّا. إنَّه دوري أوَّلًا. فأنا أتطلَّع إلى ذلك منذ وقتٍ طويلٍ، وهى رحلةً ستفيدني كثيرًا، فلابدّ من أن أذهب.

قالت الأمُّ:

ـ هذا مستحيلٌ يا «جو» .إنَّ عمَّتكِ اختارت «إيمي» تحديدًا. ولسنا نحن مَنْ نقرِّر عندما تقدِّم لنا عمَّتكِ مثل هذا المعروف.

بكت «جو» بحرقةٍ قائلةً:

ـ هذا ظلمٌ..هذا ظلمٌ. هكذا «إيمي» تحظى دائمًا بكُلِّ المسرَّة، وأنا أقوم بكُلِّ العمل.

قالت الأمُّ:

ـ أخشى أن يكون هذا الاختيار من نتائج عملكِ أنتِ. لقد شكتْ لي عمَّتكِ بعد زيارتكِ الأخيرة لها مع «إيمي»، من سلوككِ الفظّ. وهى تقول هنا في رسالتها إنَّها كانت تخطّط لاختياركِ أنتِ، ولكنَّ عباراتكِ الجافَّة جعلتها تُحْجِم عن ذلك. وهى هنا تثنى على طباع «إيمي» الليِّنة ولهفتها على مساعده الآخرين.

قالت «جو» وهى تتذكَّر ما قالت لعمَّتها آنذاك، نادمةً:

ـ ويحك يا لساني البغيض! لماذا لا أتعلَّم كيف أبقيك صامتًا؟

قالت الأمُّ بأسفٍ:

ـ كنت أودُّ أن تذهبي، ولكن لا أمل في ذلك الآن، لهذا لا تفسدي سعادة «إيمي» بالنَّدم والتأنيب.

طمأنت «جو» أمَّها، وهى تشعر بغصَّةٍ مؤلمةٍ، إنَّها لن تفسد على أختها سعادتها، وأنَّها ستبذل ما في وسعها كي تبدو سعيدةً لسعادتها.

قالت «إيمي» مستبشرةً بهذه الرحلة السَّعيدة:

ـ هذه ليست مُجرَّد رحلةٍ للمتعة يا عزيزتي. فهي ستقرِّر مستقبل عملي، إذ لو كان لدىَّ أيَّة موهبة، فسأجدها في روما وسأحاول أن أثقلها وأنميها.

الفصل السابع والعشرون

تضحية أم هروب!!

Sacrifice or escape

أسرَّت السَّيِّدة «مارش» إلى ابنتها «جو» بقلقها بشأن «بيث» :

ـ ثمَّة شيءٌ ما يشغل بالها، فهي تجلس وحيدةً فترةً طويلةً من دون أن تكلِّم والدها كما تعوَّدت أن تفعل. أغانيها حزينةٌ، ونظرة عينيها تدلُّ على شيءٍ غامضٍ لا أعرف سببه أو مصدره!

قالت «جو» :

ـ إنَّها تكبر، ولهذا فهي تحلم..لديها آمالٌ ومخاوف لا تعرف سرَّ تفسيرها. إنَّ «بيث» في الثامنة عشرة من عُمْرها، ومع هذا فنحن لا نزال نعاملها كطفلةٍ.

أخذت «جو» تتابع أختها «بيث» باهتمام، فيما هي تحاول أن تبدو مستغرقةً في شؤونها الخارجيَّة. واستطاعت أخيرًا أن تصل إلى ما يكشف عن سرٍّ تبدُّلها. كانت تحبُّ الانهماك في الكتابة عند النافذة بعد ظهر يوم السَّبت، وفي نفس الوقت كانت عينا «جو» عليها تراقبها. فلاحظت أنَّ أحدهم مرَّ فجأةً من جانب المنزل وهو يَصْفُرُ، وقال:

ـ كُلُّ شيء على ما يرام! تعالى الليلة.

• بيث تعزف علي البيانو وهي حزينة•

ابتسمت «بيث» وهزَّت برأسها، وتابعت الشَّابَّ بنظرها حتَّى غادر المكان.

تابعت «جو» بنظرها وجه «بيث» باهتمام ولاحظت كيف أنخطف لونها بسرعة وزالت ابتسامتها. كانت هناك دمعةٌ حائرةٌ في عينيها تحاول أن تخفيها.

صُدمت «جو» بهول ما اكتشفت: إنَّ «بيث» تُحبُّ «لوري» !

وراحت أفكارٌ كثيرةٌ تعصف بها، ولكنَّها عزمت في نفسها على أمرٍ تفعلُه.

كان سلوك «لوري» مع «بيث» رقيقًا بشكل خاصّ. وبما أنَّه كان لطيفًا مع الجميع، لم يتخيَّل أحد أنَّه يهتمُّ بـ«بيث» أكثر من غيرها. بل إنَّ الانطباع السَّائد عند الأسرة، هو أنَّ «لوري» مُغرمٌ بـ«جو» أكثر من أيَّة واحدة أخرى.

أخذت «جو» تسترجع في ذاكرتها تصرُّفات «لوري» معها، وبدأت تكتشف أنَّه كان يتغيَّر نحوها تدريجيًا، وكذلك كان سلوكه يتغيَّر.

وذات ليلةٍ، عزمت «جو» على مراقبه سلوك «لوري»، و«بيث» عن كثب. ولاحظت أنَّهما يتبادلان النظرات الحانية. وتساءلت بينها وبين نفسها: «لعلَّها تستطيع أن تُسعده ويستطيع هو أن يسعدها!!».

وعزمت على أن تبتعد، ولكن إلى أين تذهب؟ وجلست على أريكتها المفضَّلة تفكِّر في الأمر.

وما كادت «جو» تضع رأسها على الوسادة حتَّى سمعت صوت نحيب «بيث». كانت «بيث» تتألَّم وكانت حرارتها مرتفعة، ثُمَّ صارت تتفوَّه بعباراتٍ يائسةٍ تشير إلى مرضٍ لا شفاء منه. بعدها تلاشى صوتها فجأةً فشعرت «جو» بالذُّعر.

وأرادت أن تستنجد بوالدتها، ولكنَّ «بيث» منعتها. وطلبت إليها أن تجلس إلى جانبها وتمسح لها جبينها.

وشعرت «جو» أنَّ ثمَّة أمرًا يُثقل صدر أختها، فطلبت منها أن تفصح عن مكنون صدرها حتَّى ترتاح. فقالت لها «بيث»:

ـ ليس الآن. لم يحن الأوان بعد.

ولكنَّها وعدتها بأن تُعْلمها في الوقت المناسب.

ونامت الشقيقتان جنبًا إلى جنب. وفي الصَّباح، عزمت «جو» على السَّفر، وصارحت والدتها برغبتها هذه متذرِّعة بحاجتها إلى التغيير والتجديد.

وقالت إنَّها ترغب في السَّفر إلى «نيويورك» حيث تستطيع القيام بما طلبته منها السَّيِّدة «كيرك»، وهو تدريس أولادها.

كانت الأمُّ قلقةً بشأن غياب ابنتها عن البيت والعمل بعيدًا عنهم، ولكنَّ «جو» طمأنتها، وأكَّدت لها أنَّ السَّفر سيفتح لها آفاقًا جديدةً للكتابة.

وعندما ألحَّت والدتها على معرفه الأسباب الخفية والحقيقية لقرارها، زعمتْ «جو» أنَّ «لوري» يتقرَّب كثيرًا منها وهى لا تريد أن تتعلَّق به في الوقت الحاضر. فهي تفضِّل أن يكونا صديقين.

اقتنعت الأمُّ بغياب ابنتها بعض الوقت، إذ ربَّما كان هذا أفضل لها ولـ «لوري» .وطلب «جو» من أمِّها أن يبقى هذا الأمر سرًّا بينهما لا يعلم به «لوري» .

فكَّرت «جو» في نفسها: «كما أنَّ «بيث» يجب أن تعتقد أنَّني مسافرةٌ للمتعة، فأنا لا أستطيع أن أتحدَّث عن «لوري» أمامها، وبوسع «بيث» أن تواسيه بعد أن أسافر وتشفيه من أفكاره الرومانسيَّة.

•بيث تقضي معظم وقتها بجوار النافذة•

وافقت السَّيِّدة «كيرك» على استقبال «جو»، ووعدت بإعداد مكانٍ مناسبٍ لراحتها. وكانت «جو» تتطلَّع بشغفٍ إلى آفاق العمل الجديد وتتوق إلى الالتحاق به في أقرب وقت.

وعندما اكتملت الاستعدادات، أخبرت «لوري» بشيءٍ من الخوف عن نيَّتها، ولكن «لوري» رغم دهشته استقبل النبأ بهدوءٍ. حينها شعرت بارتياح، وراحت تكمل استعداداتها بقلبٍ مطمئنّ.

وقبل أن تسافر، أوصت أختها «بيث» بشيءٍ واحدٍ، وهو أن تعتني بفتاها، أي بـــ «لوري» .

فأجابتها «بيث» :

ـ سأعتني به بالطَّبع، ولكنَّني لا أستطيع أن أملأ مكانكِ، ولسوف يفتقدكِ كثيرًا.

قالت «جو» :

ـ لن يضيره ذلك. تذكَّري فقط أنَّني تركته في عهدتكِ.

ووعدت «بيث» أختها بأن تفعل كُلَّ ما في وسعها، ولكنَّها كانت مندهشة من نظرات «جو» الغريبة إليها.

وأخيرًا ودَّعها «لوري»، قائلًا: إنَّ عواطفه معها، وكانت كلماتُ «لوري» الحنون آخر كلمات الوداع.

❊❊❊❊

الفصل الثامن والعشرون

الأخلاقيات..والرجل العظيم

Ethics.. and the great man

في شهر أكتوبر(تشرين الأوَّل)، كتبت «جو» أوَّل رسالة لها من نيويورك، إلى والدتها و«بيث»، تقول فيها أنَّ لديها أخبارًا كثيرةً، وأنَّ السَّيِّدة «كيرك» رحَّبت بها كثيرًا، وهى تشعر وكأنَّها في بيتها.

وراحت تتحدَّث في رسالتها بابتهاجٍ عن تفاصيل حياتها الجديدة، وعملها، وإقامتها.

وتحت عنوان ليلة الثلاثاء، كتبت «جو» تخبرهما عن رجل ألمانيٍّ تعرَّفت إليه في المدرسة يدعى الأستاذ «باير»، وراحت تصفه لهما وصفًا دقيقًا. وقالت رغم سوء هندامه وعدم وسامته، إلَّا أنَّها أُعجبت به.

وتحت عنوان ليلة الخميس، قالت إنَّها أمضت ذلك اليوم بهدوء في الخياطة والكتابة والتدريس في غرفتها الصَّغيرة، وروت لأمِّها وأختها كيف تعرَّفت مصادفةً إلى السَّيِّد «باير» وتحدَّثت معه.

وسألت «جو» في هذه الرِّسالة عن «تيدى» وقالت: أتُراه مشغولًا إلى هذا الحدِّ بالدراسة، بحيث لا يجد وقتًا للكتابة إلى أصدقائه؟!

• جو في نيويورك•

وعادت «جو» فكتبت في شهر ديسمبر (كانون الأوَّل) رسالة خاصَّةً إلى «بيث» تخبرها فيها عن توطُّد علاقتها بالبروفسور «باير»، وكيف بدأت تتعلَّم الألمانية على يديه. وقالت إنَّها تطوَّعت لترتيب غرفته التي كانت تعمُّها الفوضى، ولقضاء بعض حوائجه الضروريَّة، وإنَّها سعيدةٌ في تقدُّمها باللُّغة الألمانية، وبسعة صدر البروفسور «باير» في تعليمها.

وفى شهر يناير(كانون الثاني) بعثت «جو» برسالةٍ إلى أسرتها تتمنَّى لهم فيها عامًا سعيدًا، وتشكرهم على ما أرسلوه لها من هدايا. وشكرت والدها بشكل خاصٍّ على الكتب التي أرسلها لها. وبمناسبة الحديث عن الكتب، توقَّفت «جو» مطولًا أمام هدية الأستاذ «باير»، إذ أهداها كتابًا للكاتب الإنجليزي الكبير وليم شكسبير(7) بمناسبة عيد رأس السَّنة. وكانت سعيدةً جدًّا بهذه الهديَّة التي اعتبرتها باكورة تأسيس مكتبةٍ خاصةٍ بها. وكالعادة في رسائلها الأخيرة، كان الأستاذ «باير» محور حديثها واهتمامها. كما كانت رسالة «جو» تنطق بالحبور والسُّرور، والعزم على متابعه العمل بهمةٍ ونشاط.

❋❋❋

(7) وليم شكسبير William Shakespeare، هو الشاعر والكاتب المسرحي الإنجليزي البارز.ولد تقريبًا في عام 1564، وتوفي في عام1616.أعماله موجودة وهي تتكوَّن من38 مسرحية، 158 من السونتات، واثنتين من القصَّص الشعرية وبعض القصائد الشعرية. وقد ترجمت مسرحياته وأعماله إلى كُلِّ اللُّغات الحيَّة وتمَّ تأديتها أكثر بكثير من مؤلَّفات أي كاتب مسرحي آخر.(المُعد).

كانت «جو» رغم انهماكها في الجوِّ الاجتماعيِّ الذي أحبَّته، والعمل الذي تكسب منه عيشها، تجد وقتًا للكتابة. وكانت ترى أنَّ المال يمنح القوَّة، لذلك عزمت على أن تحصل عليهما معًا، لا من أجل ذاتها فحسب، بل من أجل مَنْ كانت تحبُّهم أكثر من نفسها. وكي تسبغ عليهم كُلَّ ما تستطيع من وسائل الرَّاحة.

اختارت «جو» كتابه القصَّص العاطفيَّة. وذات يوم حملتْ قصَّةً مثيرةً إلى ناشر يدعى «داشوود» يعمل رئيسًا لتحرير صحيفة «فولكانو» الأسبوعيَّة. وحرصت على أن تدخل إليه وهى في أفضل لباسٍ، وأن تبدو هادئةً ومتمالكةً أعصابها.

قالت «جو» وهى تقدّم مخطوطًا إلى رئيس التحرير طالبةً إليه أن يقرأه، إنَّ صديقةً لها طلبت إليها أن تعرض لها هذه القصَّة للنَّشر. ولم تنس «جو» بالطَّبع أن تخبره أنَّ الكاتبة حصلت على جائزةٍ للقصَّة من قبل. فطلب إليها الناشر أن تترك القصَّة عنده لمدة أسبوعٍ، وأن تراجعه بعد ذلك.

كان لقاء «جو» الثاني مع الناشر أكثر راحةً لأعصابها من اللَّقاء الأوَّل. وسرَّها أن يُعلمها بأنَّ قصَّتها مقبولةٌ ولكنَّها تحتاج إلى بعض التعديل، وأنَّ حذف بعض المقاطع يجعلها مناسبةً تمامًا.

لم تستطع «جو» أن تعرف مخطوطها من كثرة التشطيب والحذف، ودُهشتْ لأنَّ الانعكاسات الأخلاقيَّة للقصَّة قد حذفت. وعندما استفسرت عن ذلك من الناشر قال لها مبتسمًا:

ـ إنَّ النَّاس يتطلَّعون إلى التَّسلية لا إلى الوعظ، فالأخلاق لم تعُد تلقى رواجًا هذه الأيَّام.

رضخت «جو» إلى رغبه النَّاشر، عندما علمت أنَّ القصَّة ستجد طريقها إلى النشر إذا ما عُدِّلت، وأنَّ المكافأة مجزية.

وقالت له بفرحٍ خفي:

ـ هل أخبر صديقتي بأنَّكم ستنشرون قصَّتها إذا ما قدَّمت واحدةً أفضل.

فوعدها النَّاشر بأنَّها ستكون موضع اهتمام، وطلب منها أن تنصح رفيقتها، التي تصرُّ على عدم ذكر اسمها، بكتابه قصَّةٍ قصيرةٍ ومثيرةٍ، وألَّا تلتفت كثيرًا إلى الجانب الأخلاقيّ.

وسرعان ما اقتحمت «جو» الأدب العاطفيَّ، مُتّبعةً توجيهات النَّاشر»داشوود».وراحت تعاين كُلَّ ما حولها من شخصيَّاتٍ وموضوعاتٍ ومشاهد. واستمرأت هذا العمل، وكانت فكره اصطحاب «بيث» إلى الجبال تلحُّ عليها مع الوقت. ولم يعكّر مِزاجها سوى فكرة أنَّها اخفتْ عن أمِّها وأبيها الطَّريق الذي سلكتْه.

ثُمَّ ما لبثت «جو» أن شعرت بأنَّ تجربتها السَّاذجة في عالم الأدب تحتاج إلى صقل، ما دفعها إلى العمل بنشاط لاستدراك ما ينقصها. وكذلك دفعها تعطُّشُها وحاجتُها إلى مادَّة تقوِّى إنتاجها، إلى البحث في الصُّحف عن أخبار الحوادث والوقائع والجرائم، كما كانت تحاول قراءة وجوه كُلِّ مَنْ حولها.

ومع محاولتها إسباغ الكمال على شخصيَّات أبطالها الخياليِّين، اكتشفت أنَّ البطل، مع كُلِّ ما فيه من نواقص يعيش صميم الحياة، وهو ما يثير اهتمامها.

ونصحها الأستاذ «باير» بأن تهتمَّ بالشَّخصيَّات البسيطة والواقعية والجذَّابة. وهذا ما دعاها إلى أن تدرس شخصيَّته بالذَّات، إذ بدت لها أشبه باللّغز. فقد كان موضع محبَّة الجميع، رغم أنَّه لم يكن غنيًا ولا وسيمًا ولم تكن شخصيَّته ساحرة، وإنَّما كانت جذابةً إلى درجة أن يتحلَّق النَّاس حولها، كما يتحلَّق الفراش حول النَّار المتوهجة. وكانت «جو» وهى تراقبه تحاول استكناه واستكشاف سرِّ هذه الشَّخصيَّة.

ومع المتابعة الطويلة، اكتشفت «جو» أنَّ السَّرَّ يكمن في نواياه الصَّادقة والطَّيِّبة إزاء مَنْ حوله، فضلًا عن ذكائه، وهذا ما جعلها تزداد احترامًا له.

وعلمت أيضًا من إحدى زميلاتها أنّ السَّيِّد «باير»، وإن كان مُجرَّد مُدرِّس لغةٍ بائسٍ في أمريكا، إلَّا أنَّه كان أستاذًا ذا مكانه رفيعةٍ في برلين.

وازدادت «جو» إعجابًا بالبروفسور «باير»، عندما أتيحت لها فرصةٌ لحضور ندوة مختارة، شارك فيها عددٌ من وجهاء القوم وكبار المثَّقفين. وبُهرت بما دار من مناقشةٍ حول الدِّين وفلسفة الحياة، وبأسماء مفكرين من أمثال: «كانت»[8]، و«هيجل»[9]، إذ لم تكن تعلم عن هذه الشَّخصيَّات شيئًا.

(8) إيمانويل كانت Immanuel Kant، هو فيلسوف ألماني من القرن الثامن عشر، ولد في عام 1724، وتوفي في عام1804 .كان آخر الفلاسفة المؤثرين في الثقافة الأوروبيَّة الحديثة. وأحد أهم الفلاسفة الذين كتبوا في نظرية المعرفة الكلاسيكيَّة.(المُعد).

(9) جورج فيلهلم فريدريش هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel، هو فيلسوف ألماني، وُلد في عام 1770، وتوفي في عام 1831 .يعتبر «هيجل»أحد أهم الفلاسفة الألمان، حيث يعتبر أهم مؤسسي المثالية الألمانية في الفلسفة في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي. طوَّر المنهج الجدلي الذي أثبت من خلاله أن سير التاريخ والأفكار يتم بوجود الأطروحة ثُمَّ نقيضها ثُمَّ التوليف بينهما.وكان لفلسفته أثر عميق على معظم الفلسفات المعاصرة.(المُعد).

وفي تلك النَّدوة انبرى «باير» مدافعًا بحماسةٍ عن الدِّين ووجود الله سبحانه وتعالي.

أُعجبت «جو» بحماسته وروعه منطقه، وبدأت تقتنع منذ ذلك الحين، بأنَّ امتلاك الشَّخصيَّة القويَّة الحُرَّة المؤمنة الواثقة من نفسها، أفضل من امتلاك المال، أو المرتبة الاجتماعيَّة العالية، أو الجمال، وأنَّ السَّيِّد «فريدريك باير» ليس إنسانًا عاديًّا، بل هو إنسانٌ عظيم.

تعزَّزتْ هذه القناعة مع الأيَّام. وكانت «جو» تقدِّر مكانته، وتحرص على احترامه، وعلى أن تكون جديرةً بصداقته. واكتشفت مصادفة أنَّه كان يعرف بكتابتها في صحيفة «فولكانو»، ولكنَّه لم يصارحها بذلك منتظرًا أن تصارحه هي أوَّلًا.

وعندما انكشف الأمر أخبرها بأنَّه لا يجد مستوى تلك الصحيفة لائقًا، فضلًا عن أنَّ كُلَّ ما تنشره هو تفاهات. ودافعت «جو» عن قصَّص الإثارة قائلةً أنَّ هناك كثيرًا من الأشخاص المحترمين يكسبون عيشهم من كتابه مثل هذه القصَّص.

فأجابها «باير» بشيءٍ من العصبيَّة: «إنَّ هؤلاء (المحترمين) يدسُّون السُّمَّ في الدَّسم، وهم يكسبون مالًا حرامًا، ومن الأفضل لهم أن يكنسوا الشَّوارع طلبًا للمال فذلك أشرف لهم».

شعرت «جو» بصدمه، ولكنَّها حاولت أن تعزِّى نفسها بأنَّ ما تكتبه قد يكون سخيفًا ولكنَّه ليس سيِّئًا! وما إنْ صعدتْ إلى غرفتها حتَّى راحت تعيد قراءه كُلِّ قصَّة من قصَّصها. وسرعان ما شعرت بالاكتئاب بعد أن تجسَّمت

وتكشفت الأخطاء في عينيها، واقتنعت بتفاهة ما كتبتْ، وقالت في نفسها: «ماذا أفعل إذا ما عرفت بها أسرتي أو اطَّلع عليها السَّيِّد؟».

وفجأةً لمعت في ذهنها فكرة، فحملت جميع أوراقها وألقت بها في المدفأة وأحرقتها. وأقلعت عن كتابة قصَّص الإثارة، وأرادت أن تتحوَّل إلى فنٍّ آخر من فنون الكتابة، كالقصَّص ذات الطابع الأخلاقيِّ أو قصَّص الأطفال، ولكنَّها لم تجد قارئًا لها.

وفيما كانت تتفاعل في داخلها عوامل ثوره خفيَّة، كانت حياتها الخارجيَّة تسير كالمعتاد. ولم تعد تتحدَّث في هذا الموضوع مع البروفسور الذي كان يعرف أنَّها توقفت عن الكتابة. وكان يحاول مساعدتها بشتَّى الوسائل مبرهنًا على أنَّه صديقٌ حقيقيّ. ولم تكن «جو» حقيقةً تعسةً، فمقابل كسلها في الكتابة كانت تكتسب أشياء كثيرةً إلى جانب اللُّغة الألمانية، وتضع الأساس لقصَّةٍ مثيرةٍ خاصَّةٍ بها.

وجاء يونيو(حزيران) وحان الوقت كي تودِّع «جو» مَنْ حولها وتعود إلى البيت. كان الجميع آسفين على فراقها، وعلى وجه الخصوص السَّيِّد «باير»، ولكنَّ «جو» ألحَّتْ عليه وهى تودِّعهُ بالمجئ لزيارة أُسرتها والتَّعرُّف بها وبصديقها المفضَّل «لوري» .

أحسَّ السَّيِّد «باير» بغصَّةٍ وهو يسمعها تتحدَّث عن «لوري» بحماسةٍ، وخشي أن يكون أكثر من مُجرَّد صديق مفضَّل. ولكنَّه أخفى مشاعره، وقال إنَّه يخشى إلَّا يتمكَّن من المجئ، متمنِّيًا لصديقها النجاح ولها السَّعادة. وغادر الغرفة بعد أن صافحها بحرارةٍ.

وفى الصَّباح الباكر من اليوم التَّالي، هُرع «باير» إلى المحطَّة ليكون في وداع «جو» فسعدت بلقائه في المحطَّة وهو يحمل لها باقة من أزهار البنفسج، وقالت له قبل أن ترحل:

ـ لقد انصرم الشِّتاء، ولم أكتب، ولم أكتسب مالًا، ولكنَّني اكتسبت صديقًا جديرًا بالصَّداقة وسوف أحافظ عليه مدى العُمْر.

❊❊❊❊

الفصل التاسع والعشرون

حب من طرف واحد

Unilateral love

كان الجميع حاضرين حفلة تخرُّج «لوري» بدرجة الشَّرف: الجدُّ «لورنس» الذي كان فخورًا بحفيده، والسَّيِّد والسَّيِّدة «مارش»، و«جون»، و«ميج»، و«جو»، و«بيث» .وبعد تناول العشاء، قام «لوري» بتوديع «جو» وشقيقاتها متوقِّعًا أن يقابل «جو» في اليوم التَّالي، وكانت قد وعدتْه بالمجيء.

كان القلق باديًا عليهما في بداية اللِّقاء .وشعرت «جو» أنَّ «لوري» يريد أن يبوح لها بشيءٍ يُثقل عليه .

وحتَّى تساعده علي الكلام قالت له إنَّها مستعدة لسماع ما يريد الإفصاح عنه. وهكذا صارحها «لوري» بحبِّه .وقال لها أنَّه أحبَّها منذ عرفها، وإنَّه أراد أن يبوح لها بسرِّه ولكنَّها لم تُتح له فرصة لذلك.

• جو ترفض حب لوري •

وقال إنَّه يريد أن يعرف جوابها لأنَّه لم يعد بوسعه الانتظار وكان جوابها أنَّها معجبةٌ به وإنَّه فعل الكثير ليرضيها. واعترفت له بأنَّها حاولت أن تحبَّه لكنَّها لا تعرف لماذا لم تستطع ذلك. فهي لا تملك أن تغيِّر مشاعرها، ولا يمكن أن تكذب عليه.

أُصيب «لوري» بصدمة وخيبة أمل شديدة. وشعرت «جو» بالأسى والرثاء لحاله وأبدت أسفها الشديد. ولكنَّها لا تستطيع أن ترغم نفسها على شيءٍ لا تقدر عليه. وراحت تربت على كتفه برقَّةٍ والأسى يعتصرها.

وران بينهما الصَّمت. كان الموقف عصيبًا. حاولت «جو» أن تقطع هذا الصَّمت وهمَّت بالكلام، ولكنَّ «لوري»رفض أن يسمع شيئًا عن «باير» مُعتقدًا أنَّها تحبُّه.

وهنا أكَّدت له أنَّ «باير» إنسانٌ جيِّدٌ وطيبٌ وأنَّه مُجرَّد صديقٍ، ولا شيء غير ذلك. وحاولت «جو» أن تخفِّف من لوعة «لوري» الذي جثا على ركبتيه أمامها، كما حاولت أن تُهدئ من روعه.

وقالت له بهدوءٍ إنَّ أحدهما لا يناسب الآخر، فكلاهما حادُّ الطباع، وسيكون من الحماقة أن يرتبطا بالزَّواج، وطلبت أن يكونا صديقين فحسب.

ولم تفلح توسُّلات «لوري» في تغيير موقفها، وتمنَّت له الفتاة المناسبة التي تكون أهلًا له. هنا، فَقَدَ أعصابه وتفوَّه بكلماتٍ أزعجتها ودفعتها إلى صدِّه، وتحوَّل الموقف بينهما إلى ما يشبه المشاحنة أو المشاجرة.

قال لها «لوري» :

ـ ستندمين ذات يومٍ يا «جو» .

وابتعد عنها متأثِّرًا بما جرى.

شعرت «جو» لبرهةٍ بأنَّ قلبها يكاد يتوقَّف خوفًا من أن يفعل «لوري» شيئًا بنفسه، وعادت أدراجها إلى البيت وهي تفكِّر فيما يمكن أن تقوله للسَّيِّد «لورنس» كي يعالج الموقف.

وعندما وصلتْ، صارحتهُ بكُلِّ ما حدث وراحتْ تجهش بالبكاء.

عاد «لوري» إلى المنزل متعبًا، فوجد الجدَّ الذي تظاهر عند رؤيته بأنَّه لا يعرف شيئًا. أمَّا «لوري»، فقد توجَّه إلى البيانو وراح يعزف «السوناتا الحزينة» كما لم يعزفها من قبل.

وأخيرًا صارح الجدُّ حفيده، مُرَبِّتًا على كتفه بحنانٍ، بأنَّه عرف كُلَّ شيءٍ من «جو» .كان الموقف صعبًا يدعو إلى التَّروِّي والتفكير. وبعد لحظات قليلة، نصحه جدَّه أن يغادر البلاد لفترةٍ من الوقت لينشد السَّلوى وسكينة القلب.

كما اقترح عليه أن يسافرا معًا إلى حيث يوجد لديه بعض الأعمال التجارية التي تحتاج إلى متابعة، مؤكِّدًا أنَّه لن يُثقل عليه بحيث يستطيع أن يذهب إلى حيث يشاء.

رضخ «لوري» إلى رغبة جدِّه، وجاءت لحظة الفراق. ودَّع «لوري» جميع أفراد أسرة «مارش»، بمَنْ فيهم «جو» . كان الوداع قصيرًا ومقتضبًا. غادرا بعدها وابتعد ولم ينظر إلى الخلف، وهنا أدركت «جو» أن الفتى لن يعود أبدًا.

❋❋❋❋

عندما عادت «جو»إلى البيت، فوجئت بالتبدُّل الذي طرأ على «بيث». كان من النَّوع الذي لا يحسُّ به إلَّا مَنْ يغيب عنها طويلًا. إذ كانت هناك نظرةٌ شفافةٌ غريبةٌ في عينيها.

واعتقدت «جو» بأنَّ رحيل «لوري» أعاد إلى أختها ذلك القلق الغامض، فاقترحت عليها أن تقوما برحلةٍ إلى الشاطئ للترفيه عن النفس، فوافقت «بيث» على اقتراحها.

كان هناك سرٌّ ما يعتمل في نفس «بيث» ويثقل على صدرها وتريد أن تبوح به إلى «جو».وذات يومٍ، اقتربت «بيث» من أختها وهي مضطجعةٌ، وقالت:

ـ عزيزتي «جو»، أنا سعيدةٌ لأنَّكِ تعرفين. حاولت أن أخبركِ فلم أستطيع.

وتابعت وكأنَّها تريد أن تواسي شقيقتها:

ـ عرفت ذلك منذ زمن. لقد اعتدت ذلك المرض الآن، ولم يعد من الصَّعب أن أتحمَّله ..

انتاب «جو» شعور بالسَّعادة لأنَّ قلق أختها وتبدُّلها لا علاقة لـ «لوري» به.

وسألتها:

ـ أهذا كُلُّ ما يقلقكِ؟

قالت «بيث» :

ـ نعم، كنت أراكِ قويَّةً ومفعمةً بالسَّعادة، وأشعر بأنَّني لا أستطيع أن أكون مثلكِ.

ـ ولماذا لم تخبرني بذلك يا «بيث»؟ وكيف تحمَّلتِ العناء وحدكِ؟ كيف تحملتِ هذا الشعور بالوحدة؟

ـ كانت أمّي مشغولة بـ«ميج»، و«إيمي» بعيدة، وحسبتُ أنَّكِ سعيدةٌ مع «لوري»، فلم أُرِدْ إزعاجكِ .

ـ وأنا كنت أظنُّ أنَّكِ تحبّينه يا «بيث»، وهذا ما حملني على الابتعاد.

نظرت «بيث» بدهشةٍ إلى «جو» التي «ابتسمت، رغم ألمها، وقالت:

ـ إذًا، فأنتِ لم تفكّري في ذلك يا عزيزتي؟

ـ كيف يسعني أن أُحبَّه يا «جو» وهو مغرم بكِ؟ إنَّني أحبُّه فعلًا، لأنَّه كان طيّبًا معي دومًا، ولكنَّه لم يكن أكثر من أخٍ بالنسبة إليَّ.

وهنا طلبت «جو» من شقيقتها أن تقاوم الضَّعف وتتغلَّب على المرضى، وطمأنتها بأنَّها ستفعل كُلَّ ما في وسعها كي تقف إلى جانبها، وراحت تبكي بحرقةٍ، وتعانقت الأختان بحرارةٍ.

كان انفرادهما فترةً من الوقت مناسبةً جيِّدةً كي تصارح كُلُّ واحدةٍ منهما الأخرى بما يجول في خاطرها، وكي تشدَّ «جو» من أزر أختها وتبعدها عن الشعور بالضَّعف والوحدة.

❊❊❊❊

الفصل الثلاثون

رؤى جديدة

New Vision

كانت السَّاعة الثالثة بعد الظُّهر، وكان مشهد مدينة «نيس»[10] رائعًا في ذلك اليوم المشمس، فـ «الكورنيش» كان يحفل بكُلِّ مظاهر البذخ والبهجة والموضة والأشجار الوارفة والأزهار النضرة. كما كانت «نيس» ملتقى النَّاس من كُلِّ أمم العالم. وفي يوم عيد الميلاد، كان لقاء «إيمي» مع «لوري» في نيس.

صاحت «إيمي» :

ـ أوه «لوري» ! أهذا أنت حقًا؟ كنت أظنُّ أنَّك لن تأتي.

فقال «لوري» :

ـ لقد تأخَّرت ولكنَّي وعدتكِ أن أمضي يوم الميلاد معكِ، وها أنذا.

وجرى بينهما حديثٌ طويلٌ.

(10) نيس Nice: هي مدينة تقع في جنوب فرنسا، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بين مرسيليا وجنوا، أي إقليم ألب كوت دازور. يبلغ عدد سكانها 933080 نسمة (عام1999)، ومساحتها تبلغ 92,71 كم2.تعتبر المدينة مركزًا سياحيًا رئيسًا في البلاد. وتشتهر بمصايفها وشواطئها الجميلة ويزورها ملايين السياح كُلّ سنة.(المُعد).

بدا «لوري» أكثر وسامةً، ولكنَّه كان متعبًا قانطًا، ولم تعرف «إيمي» السَّبب. كانت تريد أن تعرف كُلّ شيءٍ عن حياة «لوري» الجديدة. ولاحظت أنَّ ثمَّة تغيُّرًا طرأ على سلوكه وشخصيَّته، ولكنَّها لم تعرف ما كان سبب هذا التغيُّر.

كان لدي كُلٍّ منهما الكثير من الأسئلة والكثير من الأمور التي يودُّ الواحد منهما أن يتحدَّث عنها إلى الآخر. وركبا معًا. وتحدثا طويلًا. وتركها «لوري» آملًا اللِّقاء ليلًا ليسهرا سهرة الميلاد.

تزيَّنت «إيمي» في تلك اللَّيلة بأجمل زينة، واعتنت باختيار لباسها وحليِّها، وبدت في غاية المرح والرشاقة وهي تختال في قاعة الفندق بانتظار «لوري» .

ولمحها «لوري» عن بعدٍ وهي واقفةً أمام نافذةٍ بعيدةٍ، فبدتْ له في وقفتها كإحدى معبودات الرومان. اقترب منها وحيَّاها بإعجابٍ، فردَّت له التحيَّة وهي تبتسم.

لفتت «إيمي» الأنظار في تلك اللَّيلة وهي تستند إلى ذراع «لوري» .وكانت مستبشرة ترغب في الرَّقص وفي الاستمتاع بوقتها. وعندما عزفت الموسيقى المقطوعة الأوَّلى تحرَّكت أطرافها تعبيرًا عن رغبةٍ في الرَّقص، فتقدَّم منها «لوري» ليراقصها.

فقالت له «إيمي» :

ـ أستطيع أن أمنحك رقصةً بعدما أرقص مع الكونت.

وراحت تُراقص الكونت غير عابئةٍ بـ«لوري» وكأنَّها تريد أن تلقِّنه درسًا.

نجحت خطَّة «إيمي» في إثارة «لوري». فراح يجاملها بعدما انتهت من رقصتها. وكان سعيدًا بتلبية طلباتها.

وسألها بنظرةٍ معجبةٍ:

ـ أين تعلَّمتِ كُلَّ هذه الأشياء؟ وراح يشير إلى أسلوبها في التصرُّف وهندامها وطريقة تعاملها. فقالت متجاهلةً قصده:

ـ حياة الغربة مدرسةٌ للإنسان .إنَّني أدرس بمقدار ما ألهو. أمَّا عن لباسي فهو بسيط، وقد اعتدتُ أن أصنع معظم أشيائي بنفسي .

ازدادت «إيمي» مكانةً في نفس «لوري» واحترامًا.

وأسعدها أن تجد «لوري» يكرس وقته لها طوال السَّهرة.

بعد ذلك اللقاء، خرج كلاهما بانطباعات جديدة عن الآخر.

❊❊❊❊

الفصل الحادي والثلاثون

حياة الدعة والكسل!

Life is tricky and lazy

ذهب «لوري» إلى «نيس» وهو ينوي أن يقيم أسبوعًا، ولكنَّه أقام شهرًا. لقد أنساه وجود «إيمي» الشعور بالغربة. كان كلاهما يرتاح للقاء الآخر، وكانا يمضيان معظم الوقت معًا..في المشي أو ركوب الخيل أو الرَّقص. وفي غضون ذلك، كان كلٌّ منهما يزداد اكتشافًا للآخر وتقرُّبًا منه.

قالت «إيمي» لـ«لوري» :

ـ أنا ذاهبةٌ إلى «فالروزا» كي أرسم، فهل تذهب معي؟ سآخذ العربة الصَّغيرة، ويتولَّى «بابتيست» قيادتها.

وعبَّر «لوري» عن سروره لمرافقتها. وركبا العربة وانطلقا.

كانت «فالروزا» مدينةً خلَّابةً بطقسها الصيفيِّ الدائم، وورودها المنتشرة في كُلِّ مكان، وجدرانها البيضاء.

قالت «إيمي» وهي تقف عند شرفة المنزل الذي توجها إليه:

ـ إنَّها فردوس شهر العسل أليست كذلك؟ هل شاهدت في حياتك مثل هذه الورود؟

فأندفع «لوري» يقطف لها بعض الأزهار.

اضطجع «لوري» على الأرض ليتشمَّس.

وكانت «إيمي» تتأمَّل ملامحه وتستشفّ نظرةً فيها معاني المرارة والألم والسُّخط والندم. فقالت له:

ـ لقد تغيَّرت ..

ولم تكمل.

أحسّ «لوري» بقلقها الودّيِّ نحوه، فقال لها:

ـ أنا على ما يرام يا سيَّدتي.

قالت «إيمي» بلهجةٍ ودّيَّةٍ:

ـ لا تمكث في الشَّمس. تعال واستلقِ على العشب هنا.

أطاعها «لوري»، وقال وهو يرمي بنفسه على العشب:

ـ ماذا عندكِ من الأسرار؟

قالت له:

ـ ليس عندي ما أقوله، ابدأ أنت.

سألها «لوري»: متى تبدأ عملها الفنّي. فأجابته بحزم إنَّها لن تعمل في ميدان الفنّ بعد اليوم. فقد انتزعت منها روما كُلَّ غرورها. لقد تخلَّت عن آمالها الحمقاء بعد أن رأت الروائع.

وتساءل «لوري» بدهشةٍ:

ـ لماذا وأنتِ لديكِ الطاقة والموهبة؟

أجابت «إيمي» :

ـ الموهبة لا تعني العبقرية. ولا تستطيع أيُّ قدرةٍ أن تأتي بها. أنا أريد أن أكون فنَّانةً عظيمةً أو لا أكون..

ـ وماذا تنوين أن تفعلي الآن؟

ـ أصقل مواهبي الأخرى، وأريد أن أكون مفخرةً في المجتمع إذا أتيحت لي الفرصة.

سألها «لوري» محاولًا أن يسبر أعماقها ويكتشفها:

ـ ألهذا السبب يأتي «فْرِد فون» إلى هنا؟

وهنا لاذت «إيمي» بالصَّمت.

وتابع «لوري» سؤاله عن طبيعة علاقتها بـ«فْرِد»، وعن صحَّة تردَّد من شائعاتٍ حول علاقتها، وهل كانت لتقبل به إذا ما تقدَّم لخطبتها.

فأجابته بأنَّ هذا ممكن. ودافعت عنه حين وصفه «لوري» بالرَّجل غير المناسب لها، وقالت له إنَّه غنيٌّ ونبيلٌ وطباعه مريحة.

شعرت «إيمي» بأنَّ «لوري» قد اغتاظ من حديثها، ولكنَّها عزمت على متابعة الحديث معه بطريقةٍ استفزازيَّةٍ، وقالت له إنَّها وصديقتها يصفانه بـ«لورنس الكسول».وتابعت قائلةً:

ـ إنَّني أكره ما تفعل.

انتفض «لوري» وسألها:

ـ أنا كسولٌ! لماذا؟

ـ لأنَّك مع كُلِّ فرصة تتاح لك كي تكون جيّدًا ومفيدًا وسعيدًا، أراك عكس ذلك، وأنت تُضيِّع وقتك عبثًا بأشياء تافهةٍ، وتهتمُّ بسفاسف الأمور.

وتابعت بلهجةٍ هي أقرب إلى التقريع:

ـ ومع ما أوتيت من مال وموهبةٍ ومركزٍ وصحَّةٍ ووسامةٍ، فإنَّك تُضيِّع وقتك سدىً، بدلًا من أن تكون الرَّجل الذي ينبغي أن تكونه.

لم يأخذ «لوري» ما قالته «إيمي» على محمل الجدّ. وشعر بما تعانيه من مرارةٍ وبصدق ما تقول، فاقترب منها، ووعدها بأنَّه سيكون عند حسن ظنِّها.

شعرت «إيمي» أنَّها اشتطَّت قليلًا في تقريعها لـ«وري»، وحاولت أن تخفِّف من لهجتها، وربَّما سرَّها ضمنًا ألَّا تجد في يديه أيَّ خاتم سوى الخاتم البسيط الذي كانت أختها «جو» قد أهدته له.

وقالت له كأنَّما تحاول أن تراضيه:

ـ أعرف يا «لوري» أنَّك لو لم تكن أرقَّ رجل في العالم لما تحمَّلت كلامي، فنحن فخورون بك أبدًا. تطرق الحديث بينهما إلى «جو» .وأثار هذا الحديث شجون «لوري» وآلامه، فقال لـ«إيمي» بلهجةٍ مرَّةٍ:

ـ هل تعتقدين أنَّ «جو» يمكن أن تزورني كما تفعلين أنتِ الآن؟

فقالت له:

ـ أجل، إذا رأتك على هذه الحال. إنَّها تكره الكسالى، فلماذا لا تقوم بشيءٍ رائع يجعلها تُحبَّك؟

قال «لوري»، وهو يضع رأسه بين يديه:

ـ قولي ما تشائين. إن كنت قد فشلت فلأنَّ «جو» لم تبادلني الحبّ.

ـ أنت لم تفشل. باستطاعتك أن تفعل شيئًا إذا حاولت. حاول وسترى. ولا تدع حُبَّك يفسد حياتك.

ران الصَّمت بينهما لبضع دقائق. وحانت من «لوري» التفاته ليرى أنَّ «إيمي» كانت ترسمه.

فقال لها ساخرًا:

ـ أهذه صورتي؟

فأجابته:

ـ إنَّها صورتك كما أنت الآن .

وتناولت صورةً قديمةً كانت قد رسمتها له عند بداية تعرُّف الأسرة به، وجعلته يقارن بينهما حتَّى يدرك الفارق بنفسه. وتضاحكا..وعادا إلى البيت..وافترقا.

وفي الصَّباح التَّالي، تلقت «إيمي» رسالةً من «لوري»، بدلًا من المكالمة المعتادة، تركت في نفسها غصَّة. إذ أعلمها فيها أنَّ «لورنس الكسول» سيلحق بجدَّه، وتمنى لها السَّعادة في «فالروزا مع فْرِدْ فون».

❊❊❊❊

الفصل الثاني والثلاثون

عبر وادي الظل..ترحل!!

Through the shadow valley .. migrate

بعد الصَّدمة الأوَّلى، وبكُلِّ مودَّةٍ ومحبَّةٍ، حاول كُلُّ فرد في الأسرة أن يساعد الآخر في أوقات الشدَّة. لقد وضعت الأسرة أحزانها جانبًا وراح كُلُّ فرد يضطلع بدوره لجعل السَّنة الأخيرة لـ«بيث» سنةً سعيدة.

أُعدَّت أفضل غرفه في المنزل لـ«بيث»، وكانت تضم كُلُّ ما ترغب فيه: أزهارها المفضَّلة، لوحاتها، البيانو الذي تعزف عليه، أشغالها، وقططها. وكان الجميع يسعى لإسعادها.

في هذه الغرفة، كانت ترقد «بيث» ساكنةً، ولكنَّ أصابعها الرقيقة لم تتوقَّف عن العمل، فقد كان يُبهجها أن تضع أشياء صغيرةً لتلاميذ المدرسة الذين يمرّون بالقرب من نافذتها جيئةً وذهابًا.

وكانت سعيدةً بالعناية التي تلقاها من كُلِّ مَنْ حولها وخصوصًا عندما يتجمَّعون في غرفتها المشمسة. وكأنَّ هذه السكينة التي ملأت نفوس أفراد الأسرة، كانت فتره تمهيدٍ لاستقبال السَّاعات الصَّعبة المقبلة.

ذلك أنَّ «بيث» كانت تزداد ضعفًا يومًا بعد يوم بحيث لم تعد تقوى حتَّى على حمل الإبرة، وتنزعج من الأصوات الصادرة بين حين وآخر، وكانت صرخات الاستغاثة من الألم تمزق قلوب أهلها.

قالت «بيث» لأختها «جو» :

ـ أشعر أنَّني أقوى عندما تكونين إلى جانبي.

• بيث في مرضها الأخير وجو تتألم لأختها •

ومنذ ذلك الحين لم تعد «جو» تفارقها. كانت تنام على الأريكة بالقرب منها، وتقدِّم لها كُلَّ ما تحتاجه من الرعاية. وكانت سعيدة كُلَّ السَّعادة بما تقوم به من أجل أختها.

ولكن «بيث» كانت صامتةً دومًا حزينةً دومًا، وكأنَّما تحاول أن تبتعد عن حياتها القديمة وتُهيِّئ نفسها لتقبُّل حياةٍ جديدةٍ من خلال الدعوات والصلوات والموسيقى التي أحبَّتها.

ولت أيَّام الربيع. وباتت السماء أكثر إشراقًا والأرض أشدَّ خضرةً، وفاحت الأزهار وعادت الطُّيور لتقول وداعًا لـ«بيث» التي كانت تتشبث بأيدي مَنْ حولها كطفلٍ وديعٍ، فيما يقودها أبوها وأمُّها بحنانٍ عبر وادي الظلِّ ويسلمانها إلى الله.

وفارقت «بيث» الحياة من دون وداعٍ، وقد ارتسمت على وجهها الرقيق نظرةُ حبٍّ بريئة.

وفارقها أهلها بالدُّموع والصلوات، والحزن يعتصر القلوب.

ورأوا في وجهها، وهى مُسجَّاةٌ على فراش الموت في طريقها إلى رقدةٍ طويلةٍ بلا ألم، وجه ملاكٍ طيِّ

كان الموت راحةً لـ«بيث» الحبيبة وهذا ما خفَّف الألم والعذاب عن أسرتها.

لقد اختار الموت «بيث» إلى جواره، وها هي ترقد بسلامٍ، وقد ارتسمت السَّكينة على وجهها.

❊❊❊❊

الفصل الثالث والثلاثون

لحظات السعادة، والحياة المشتركة

Moments of happiness, shared life

كان لمحاضره «إيمي» مفعولُها العجيب على «لوري»، وإن لم يستوعبها إلَّا بعد حين. فقد عاد إلى جدِّه وكرَّس نفسه له بضعة أسابيع. واقتنع بينه وبين نفسه أنَّه كان أنانيًّا وكسولًا حقًّا.

وشعر بأنَّه إذا كان قد خسر حُبَّ «جو»، إلَّا أنَّه يستطيع أن يكسب احترامها وإعجابها. وفكَّر «لوري» في تعلُّم الموسيقى، فذهب إلى فيينّا لهذه الغاية، ولكنَّه وجد طريق الموسيقى طويلًا. وفكَّر في المسرح لكنَّه ما لبث أن أعرض عنه أيضًا. وتساءل عمَّا يمكن أن يختار، وكان عليه أن يجيب عن هذا السؤال الصَّعب.

كان يعتقد أنَّ نسيان «جو» قد استنفد كُلَّ طاقته، لكنَّه اكتشف مع الوقت، أنَّ عاطفة المراهقة الجيَّاشة قد تحوَّلت إلى عاطفةٍ هادئةٍ، وإلى مودَّة أخويَّةٍ لا تشوبها شائبةً وتدوم طويلًا وأبدًا.

انشرحتْ نفسه عندما لمعتْ في ذهنه فكره المحبَّة الأخويَّة. ولذا فقد ابتسم وهو يُحدِّق في صورة «موزارت»[11]، وقال:

•إيمي و لوري يجمعهما الحب العميق•

ـ إنَّه رجلٌ عظيمٌ، فعندما لم يحصل على إحدى الأختين كان قانعًا سعيدًا بالأخت الأخرى.

ورغم ما توصَّل إليه من قناعةٍ إلَّا أنَّ صوره «جو» ظلت تداعب خياله.

وكتب إلى «جو» يستطلع رأيها في العودة ليعيشا معًا، فأجابته بالرَّفض لأنَّ حزنها على «بيث» يملأ حياتها، ورجته أن يَنْشُد السَّعادة مع غيرها، كما رجته ألَّا يُخبر «إيمي» بما حدث لـ«بيث» .لذا، كان على «لوري»أن يراسل «إيمي» باستمرار كي لا تشعر بالوحدة أو القلق.

وصلتْ رسالة «لوري» إلى «إيمي» فسارعتْ إلى الرَّدِّ برسالةٍ بعثت بها إليه تقول فيها: «إنَّها تحس بالغربة فعلًا، وتحتاج إلى مَنْ ينقذها من وحدتها، وإنَّها قد أنهت علاقتها بـ«فْرِدْ» مسترجعةً كلمات «لوري»:إنَّ «فْرِدْ» إنسانٌ جيّدٌ، ولكن ليس بالرَّجل المناسب لكِ أبدًا. وظلَّت هذه العبارة تتردَّد في ذاكرتها ومعها صورة «لوري» وهو يردِّدها أمامها.

(11) ولفجانج أماديوس موتسارت Wolfgang Amadeus Mozart هو المؤلِّف الموسيقي النمساوي العظيم، وُلد في عام 1756، وتوفي في عام1791، وهو يعتبر من أشهر العباقرة المبدعين في تاريخ الموسيقى رغم أنَّ حياته كانت قصيرة، فقد مات عن عمر يناهز الـ35 عامًا بعد أن نجح في إنتاج حوالي 626 عمل موسيقي.(المُعد).

ومنذ ذلك الحين، لم تعد «إيمي» تلقى المحاضرات على «لوري»، بل باتت تستأنس برأيه في جميع الأمور. وكانت تهتمُّ بكُلِّ ما يفعل، وتواظب على مراسلته.

وتابعت هواية الرَّسم التي كانت تستغرق جانبًا كبيرًا من وقتها. هذا الاستغراق جعل العمَّة تعتقد أنَّ «إيمي» حزينة ونادمة على رفضها لطلب «فْرِدْ» يدها، ولكنَّ الحقيقة هن أنَّ ما كان يشغل بال «إيمي» هو شيءٌ آخر، وهو أن يعلم «لوري» أنَّ «فْرِدْ» قد غادر إلى مصر.

عندما وصل الخبر عن «بيث» إلى «إيمي» كانت قد سافرت إلى سويسرا عن طريق جنوا والبحيرات الإيطالية، ولكنَّها كانت تشعر بالضَّجر والأسى وتتوق إلى العودة إلى الوطن. وكانت تتطلَّع كُلَّ يومٍ إلى البحيرة بتوقٍ وهى تنتظر «لوري» كي يأتي ليواسيها.

كان «لوري» في ألمانيا وما أن وصلته الرسالة حتَّى سارع بالسَّفر إلى حيث تقيم أسره العمَّة «كارول» ليقابل «إيمي» .

في حديقةٍ غنَّاء عند تخوم البحيرة، كانت «إيمي» تجلس حزينةً قلقةً تفكِّر في «بيث»، وفي «لوري». ولم تسمع خطاه وهو يقترب منها عبر ممرات الحديقة. انتصب أمامها وهو يحدِّق فيها وكأنَّه يراها لأوَّل مرَّة.

وعندما رفعت ناظريها وشاهدته اندفعت نحوه غير مصدِّقةٍ، وهى تقول:

ـ أوه! «لوري».. «لوري». كنت أعرف أنَّك ستأتي.

وقف كلاهما صامتًا لبرهةٍ.

كان قلباهما مفعمين بالسَّعادة..أحست حينها أنَّ ما من إنسان يمكن أن يواسيها ويشدَّ من أزرها مثل «لوري»، وشعر هو بدوره أنَّ «إيمي» هي الفتاة

الوحيدة في العالم التي يمكن أن تحتلَّ مكان «جو» وتسعده. ولم يفصح أحدهما للآخر بمكنون قلبه، ولكنَّ كليهما كان يحسُّ بهذه الحقيقة.

قالت «إيمي» :

ـ إنَّها لمفاجأة أن أفتح عينيَّ فأراك في وقتٍ بدأت أخشى ألَّا تأتى.

فقال «لوري» :

ـ لقد جئتكِ لمَّا علمت بالخبر. ليتني أستطيع أن أقول شيئًا لأواسيكِ بوفاة العزيزة الصَّغيرة «بيث» ...

واختنقت الكلمات في حلقه ولم يجد سوى أن يعصر يدها بحنانٍ.

وسارا معًا في أرجاء الحديقة التي تناثر فيها العشَّاق. وشعرت «إيمي» بأنَّها خلَّفت وراءها مشاعر الوحدة والأحزان.

أمضى الاثنان أوقاتًا مليئةً بالبهجة والسَّعادة، وشعر «لوري» باستحالة حبِّ امرأة أخرى غير «إيمي» ولم يكن بحاجةٍ إلى أن يفصح لها عن حقيقة مشاعره، فقد أحسَّت بذلك من تلقاء نفسها، وأعطته الجواب الذي كان ينشده. وكانت تشعر بأنَّ حبَّهما سيُسعد كُلَّ مَنْ حولهما حتى «جو» .

آثر «لوري» أن يرجئ الإفصاح عن حبِّه حتى اللَّحظة المناسبة. وتخيَّل أنَّ هذه اللَّحظة ستكون في حديقة القصر تحت ضوء القمر، ولكنَّ اللَّحظة السَّعيدة جاءت في وضح النَّهار وهما يجدِّفان في ماء البحيرة. إذ سرعان ما شعرا أنَّهما في قمَّة السَّعادة وهما يتوصَّلان إلى هذا القرَّار المشترك بينما كانا يجدِّفان معًا في عُباب مياه الحياة المشتركة.

الفصل الرابع والثلاثون

الأيام الصعبة تمر

Hard days pass

كان من السَّهل على «جو» أن تعد بنكران الذَّات في الوقت الذي كانت أختها المريضة «بيث» توشك أن تودِّع الحياة، ولكن وبعد أن خبا ضوء الحياة لم يعد لـ «جو» سوى الوحدة والحزن.

كيف يسعُها أن تشيع البهجة في مَنْ حولها وقد رحلت «بيث» إلى السماء؟ ولم تعد تجد ما تشغل به نفسها.

أصابها اليأسُ وهى تفكِّر كيف ستمضى حياتها في هذا البيت الهادئ، تقوم بالواجبات الرتيبة المملَّة التي لا تنتهي.

وشعرت أنَّها لا يمكن أن تستمرَّ على هذه الوتيرة، وأنَّها قد تُقْدم على عملٍ يائس مجنون إذا لم يُساعدها أحد.

وطلبت إلي والدها ذات يومٍ أن يحادثها كما كان يفعل مع «بيث»، لأنَّها في أمسِّ الحاجة إليه. فعانقها بحنانٍ مؤكِّدًا أنَّ لا شيء أعزُّ عليه من أن يقف إلى جانبها.

وراحت تبُثُّ والدها أحزانها وتحدِّثه عن خيبات أملها، وأعطتهُ ثقتها كُلَّها، وأعطاها بدوره كُلَّ ما تحتاج إليه من مساعدهٍ. وهذا ما منح كليهما راحة النفس.

وأخذت «جو» تُعوِّد نفسها شيئًا فشيئًا على أعمال المنزل، وبصورةٍ لا شعوريَّةٍ وجدت نفسها تقوم بكُلِّ ما كانت «بيث» تقوم به.

سألتها أمُّها ذات مرَّة:

ـ لم لا تكتبين؟ لقد كانت الكتابة تُدخل السَّعادة إلى قلبكِ دومًا.

ردت «جو» بشيءٍ من اليأس والقنوط قائلةً: إنَّها لا تجد رغبةً في الكتابة، ولا تجد شخصًا يهتمُّ بما تكتب.

وشجَّعتها أمُّها على الكتابة، قائلةً:

ـ حاولي أن تكتبي يا غاليتي وأنا واثقةٌ أنَّ الكتابة ستدخل السرور إلى قلبكِ الحزين.

كتبت «جو» قصَّة لم تكن تتوقَّع أن تلقى ما أصابته من نجاحٍ. وتلقَّت الكثير من رسائل الإعجاب من القُرَّاء والأصدقاء. ممَّا أثار دهشتها، فراحت تتساءل عن سرّ إعجاب النَّاس بما كتبت.

وجاء الجواب البسيط من والدها:

ـ السرُّ يكمن في ما تحتويه من صدق. إنَّكِ تكتبين من دون أن تفكِّري في الشهرة أو المال يا بنيَّتي. وتصبين أحاسيسكِ في كتابتكِ. لقد مرَّت الأيَّام

الصَّعبة وجاءت الأيَّام الحلوة. ابذلي ما في وسعكِ وكوني سعيدة كما نحن سعداء الآن بنجاحكِ.

تأثَّرت «جو» بكلام والدها الصادق الحنون، وقالت إنَّها مدينةً بنجاحها له ولأمِّها ولحبيبة قلبها الراحلة «بيث» .

عندما علمت السَّيِّدة «مارش» بخطبه «إيمي»، و«لوري»خشيت على «جو» من الصَّدمة، ولكنَّ مخاوفها سرعان ما تبدَّدت عندما وجدت أنَّ «جو» لم تتأثَّر كثيرًا. واعترفت الأمُّ بأنَّها كانت تتوقَّع مثل هذا الحدث، بل وتتمنَّاه.

أكَّدت «جو» لأمِّها أنَّها سعيدةٌ لخطبه أختها ولأنَّها عرفت كيف ينبغي أن تعامله، ولكنَّها شعرت في قرارة نفسها بغصَّةٍ، وعاودها شيءٌ من الحزن.

وحين تذكَّرت كلماتٍ كتبها لها البروفسور عندما كانت في منزل السيِّدة «كيرك» أحست برغبةٍ شديدةٍ في البكاء.

❊❊❊❊

الفصل الخامس والثلاثون

مفاجآت

Surprises

كانت «جو» تضطجع على الأريكة وحيدةً في الغسق، تنظر إلى المدفأة وتفكِّر. إنَّه وقتها المُحبَّب الذي اعتادت أن تسرح فيه بتفكيرها، تؤلِّف القصَّص في خيالها، وتحلم، أو تفكِّر في أختها التي لم تَبْرِح ذاكرتها. وانتابها شعور بالحزن، فالسنون تنصرم بسرعةٍ وها هي تبلغ الخامسة والعشرين ولا يلوح لها شيء في الأفق.

فجأةً مَثلَ أمامها شبح «لوري» الذي انحنى وقبَّلها، فشعرت بحنين شديد إليه وصرخت والغبطة تملأ كيانها: «حبّي».

ودار بين الاثنين حديثٌ عاطفيٌّ حميمٌ، وذكريات، وعتاب، ومسامحة. وصار «لوري» يحكى لـ «جو» كيف أحبَّ «إيمي»، كما حكي لها ظروف زواجه السريع بها.

وتفهمَّت «جو» ظروفه، وشعرت بالسَّعادة لأنَّه أصبح رجلًا ناضجًا يُحسن التصرُّف. وتواعد الاثنان على الصداقة والمودة والتعاون.

وبيَّنت «جو» الظروف الصَّعبة التي مرَّت بها في السَّنة الأخيرة، حتَّى باتت تشعر وكأنَّها امرأةٌ في الأربعين. ولكن وجود أبيها وأمِّها إلى جانبها،

وسعادته هو مع شقيقتها «إيمي» جعلاها تشعر بالطُّمأنينة. وفجأةً، سُمع صوت «إيمي» وهى تصيح:

ـ أين هي؟ أين حبيبتي «جو» ؟

وتقاطر أفراد الأسرة كُلِّها وراحوا يتبادلون العناق والقُبَل.

كان وجه «إيمي» مفعمًا بالسَّعادة، وصوتها يفيض بالرِّقَّةِ، وحلاوة طباعها تكسبها مزيدًا من السِّحر فضلًا عن جمالها ورشاقتها

بدأ الجميع بالدَّردشة، مُسترجعين ذكريات الماضي بمسرَّاته ومآسيه خلال سنواتٍ طويلةٍ ماضيةٍ، وكُلُّ ذلك في مدَّةٍ لا تتعدَّى نصف ساعةٍ من الوقت.

ما إن انتهى وقت شرب الشَّاي، حتَّى قرع جرس الباب الخارجيّ. وفتحت «جو» الباب بلهفةٍ وفوجئت بشبح آخر ينتصب أمامها، شبح رجلٍ ملتحٍ ينظرُ إليها!

وصاحت «جو» :

ـ أوه! السَّيِّد «باير» لكم أنا سعيدةٌ برؤيتك.

فأجابها البروفسور «باير» :

ـ وأنا سعيد برؤيتكِ يا آنسه «مارش» .

وتردَّد قليلًا في الدُّخول بعدما سمع لغط أصواتٍ صادرةٍ من الطابق العلويّ.

قالت «جو» :

ـ تعال انضمَّ إلينا. لا يوجد سوى أفراد العائلة..أختي والأصدقاء.

قال السَّيِّد «باير» :

ـ يُسعدني أن أراهم، وأنتِ هل كنتِ مريضةً يا صديقتي؟

ـ لا، لم أكن مريضة. كنت متعبةً وحزينةً لقد صادفتنا بعض المصاعب منذ لقائنا الأخير.

ـ لقد شعرت بالحزن من أجلكِ عندما سمعت بذلك.

وعرَّفت «جو» الجميع بضيفها وقد انتابها شعورٌ بالاعتزاز والسَّعادة.

سُرَّ السَّيِّد «باير» بالترحاب الشديد الذي استُقبل به من قِبَل الجميع. واستطاع بدوره أن يستأثر باهتمامهم، بمَنْ فيهم «لوري» الذي حاول أن يتجنَّبه في البداية.

كانت «جو» تسترق النظرات إلى السَّيِّد «باير»، وتقول في نفسها: «ماذا كان يُضيرك يا صديقي العزيز لو كنت قد تودَّدت إليَّ.

في هذه الأمسية، غنَّت «إيمي» أغاني «بيث» بصوتٍ شجيٍّ، وكان الجميع يصغون باستمتاع، ولكنَّ صوتها كاد يختنق فجأةً وهى تغنّى السَّطر الأخير من أنشودة «بيث» المفضَّلة: «لا توجد على الأرض أحزان لا تستطيع السَّماء أن تُبرِئها».

وهنا قالت «جو» :

ـ فلنسمع أخيرًا أغنية «مينو»ينشدها لنا السَّيِّد «باير» .

وقف السَّيّد «باير» في زاوية المكان حيث كانت تقف «جو» وراح يدندن ويهمهم استعدادًا للغناء

ـ أتمنَّى أن تصاحبوني بالغناء.

بعد أن انهي السَّيِّد «باير» أغنيته الحلوة، فاجأه «لوري» وهو يتقدَّم منه مصطحبًا «إيمي»، قائلًا:

ـ زوجتي وأنا سعيدان جدًّا بلقائك يا سيِّدي. إنَّنا بانتظارك.

شكره البروفسور بحرارةٍ وبادله المجاملة. وقال وهو يُخاطب السَّيِّدة «مارش» إنَّه سيبقى في المدينة بضعة أيَّام بسبب بعض الأشغال.

ترك البروفسور انطباعًا حسنًا عند الجميع. ولكن «جو» راحت تتساءل بعدما غادر السَّيِّد «باير» المنزل: «تُرى، ما هي هذه الأشغال التي حملت السَّيِّد «باير» على المجيء إلى المدينة؟

❊❊❊❊

الفصل السادس والثلاثون

الوفاء

Fulfillment

قال «لوري» وقد جاء إلى بيت آلـ«مارش» في اليوم التَّالي، ووجد وزوجته في حضن أمِّها كما كانت تفعل وهى طفلة:

ـ سيِّدتي، هل تسمحين لي بزوجتي مدَّة ساعة؟ لقد وصلت الأمتعة من باريس.

قالت السَّيِّدة «مارش» :

ـ كيف لا! هيّا يا حبيبتي، لقد نسيت أنَّ لديكما بيتًا غير هذا.

قال «لوري» :

ـ ما جئتُ إلَّا لأنَّني لا أستطيع العيش من دون امرأتي الصَّغيرة أكثر من...

فقاطعته «جو»، قائلةً:

ـ دوَّارة الريح لا تعمل بلا رياح.

ردَّ «لوري» قائلًا: إنَّ زوجته تصوّب اتّجاهه حقًّا، وتسدِّد خطاه.

قالت «إيمي» بلهجةٍ ودودة:

ـ ادخل يا عزيزي. أ حسب أنَّ ما تبحث عنه بين الأمتعة موجودٌ بين أشيائي..فالرِّجال لا يعرفون شيئًا!

قالت «جو» :

ـ كيف ستتصرَّفان عندما تستقرَّان معًا؟

قال «لوري» :

ـ لن نكون كسالى. سأعمل وأثبت لجدَّي أنَّني لستُ ولدًا فاسدًا. أمَّا «إيمي» فسوف تذهلكم بحسن ضيافتها في منزلنا وفي المجتمع الراقي حولنا.

ما إن همَّا بالمغادرة حتَّى كان البروفسور «باير» يفتح البوَّابة بصبرٍ نافد.

وفي المساء قال «لوري» مخاطبًا زوجته:

ـ سيِّده «لورنس» إنَّ ذلك الرَّجل يريد أن يتزوَّج «جو» .

ـ آمل ذلك ياعزيزي.

ـ إنَّه جيِّد، ولكنَّني كنت أتمنى لو أنَّه أصغر سنًا وأكثر غنىً.

ـ لا يا عزيزي، لا تكن مهتمًا بالشؤون الماديَّة وحسب، فإذا كان أحدهما يحبُّ الآخر فلا يهمُّ العُمْر أو الغنى. إنَّ المرأة لا تتزوَّج من أجل المال.

وهنا ذكَّرها «لوري» بخبثٍ كيف أنَّها كانت تودُّ أن تتزوَّج من أجل المال في وقتٍ من الأوقات.

فقالت له «إيمي» :

ـ أنا لم أفكِّر في المال عندما رضيت بك زوجًا. كنت سأتزوجك حتَّى ولو كنت لا تملك جنيهًا، وأنت تعلم أنَّني سأسير معك مشوار الحياة إلى آخره، حتَّى ولو كنت تكسب عيشك من التَّجديف في البحيرة.

ـ كيف يمكن أن أفكِّر بغير ذلك وقد رفضْتِ مَنْ هو أغني منِّي من أجلي؟

وخطر على بال «إيمي» أن تسأله:

ـ هل يُحزنك أن تتزوَّج «جو» السَّيِّد «باير» ؟

ـ أؤكِّد لكِ أنَّني سأرقص في عرسها بسريرةٍ صافية. هل تشكِّين في ذلك يا حبيبتي؟

وكانت «إيمي» راضيةً عن هذه الإجابة التَّي أزاحت عن نفسها مخاوف الغيرة إلى الأبد.

قال «لوري» ممازحًا وهو يخطو مع زوجته في غرفه الاستقبال وقد تأبَّط ذراعها:

ـ بودّي لو نستطيع أن نفعل شيئًا لهذا البروفسور المميَّز. هل نستطيع أن نخترع صلة قربى له بغنيٍّ يموت في ألمانيا ويترك له ثروة صغيرة؟

فقالت «إيمي» :

ـ إنَّ «جو» سوف تكتشف الأمر وتفسد كُلَّ شيءٍ. إنَّها فخورةٌ به كما هو.

ـ على بركه الله. لن نتدخَّل الآن، ولكن سنتحيَّن فرصةً نستطيع أن نقدِّم فيها شيئًا لهما. إنَّني مدين لـ «جو» بتعليمي، وهى تؤمن بالنَّاس الذين يسدّدون ما عليهم من دين.

فقالت «إيمي» :

ـ ما أجمل أن نكون قادرين على مساعده الآخرين. لقد كان هذا حلمي، وبفضلك ستصبح الأحلام حقيقة.

الفصل السابع والثلاثون

الحب تحت المظلة!

Love under the umbrella

في الوقت الذي كان «لوري»، و«إيمي» يرتِّبان منزلهما ويخطِّطان لمستقبلٍ باسمٍ، كان «باير»، و«جو» يتمتَّعان بالنُّزهات عبر الطُّرق والحقول الموحلة.

طرأت على «جو» خلال تلك الفترة تغيُّرات كثيرةٌ، فقد باتت أكثر ابتهاجًا وأكثر اعتناءً بشعرها وزينتها. أمَّا البروفسور «باير» فكان يتحدَّث مع السَّيِّد «مارش» في الفلسفة ويعطى ابنته دروسًا في الحبّ.

ظلّ البروفسور «باير» يتردَّد على أسرة «جو» طوال أسبوعين. ثُمَّ انقطع فجأةً ثلاثة أيَّام، ما أثار قلق «جو». وقالت في نفسها: «كان عليه أن يودعنا كأيّ رجل يتَّصف بالكياسة».

وتذرَّعت بحاجتها إلى شراء بعض الحوائج، حتَّى تنزل إلى المدينة وتقابل السَّيِّد «باير». والتقته بالفعل في طقس ماطر.

وسألها:

ـ ماذا تفعلين هنا يا صديقتي؟

واقترح عليها أن يحمل عنها الصُّرَّة التي كانت تحملها.

قالت «جو»، وهى تتأبَّط ذراعه:

ـ ظنَّنا أنَّك سافرت.

ـ وهل أستطيع أن أسافر قبل أن أودِّع مَنْ كانوا في غاية الطِّيبة معي؟

ـ طبعًا لا، ولكنَّني علمت أنَّك كنت مشغولًا بأمورٍ خاصَّة. لقد افتقدناك ولاسيَّما أبى وأمي.

ـ وأنتِ؟

ـ أنا دائمًا سعيدةٌ برؤيتك يا سيِّدي.

• الحب تحت المظلة •

قالت «جو» تلك العبارة وهى تحاول أن تجعل صوتها يبدو طبيعيًّا.

أخبرها «باير» بَأنه سيعود قريبًا، فلم يعد لديه ما يفعله في المدينة. وقال إنَّه سيأتي لزيارتهم قبل سفره. وشعرت «جو» بغصَّة من جوابه.

فصارحها بأنَّ لديه فرصة عمل جيِّدةً تدرُّ عليه دخلًا أفضل يجعل حياه ولديه «فرانز»، و «إميل» أيسر. وقال أنَّ العمل الجديد سيكون بعيدًا ما يجعل فرصه لقاءاتهما أقلّ.

لم يكن «باير» خبيرًا بمشاعر النساء، ولم يفطن للنبرة اليائسة في صوت «جو» .

اشترت «جو» ما كانت تريده من أحد المحالّ، واشترى لها «باير» بعض الأزهار. وطلب منها أن تساعده في شراء ثوبٍ لـ«تينا»، لأنَّه يجهل هذه الأمور.

أحسَّت «جو» وهو يطلب منها هذا، برعشةٍ من البرودة الشديدة تجتاحها، وحاولت أن تخفي مشاعرها وقد أغاظها تصرُّف «باير»، ولكنَّها لم تستطع ذلك.

وانهمرت الدموع على خدَّيها. كانت محبطةً ومتعبةً تريد أن تعود إلى الديار بأسرع وقت. وعندما سألها برقَّةٍ عن سبب بكائها، لم تتردَّد في القول بصراحةٍ:

ـ لأنَّك مسافر.

قال «باير»، وهو يحاول أن يُمسك بكُلِّ ما يحمله من أشياءٍ:

ـ آه «جو»، ليس عندي الكثير من الحُبِّ أعطيه لكِ. لقد جئت لأعرف ما إذا كنتِ تهتمَّين بي. وانتظرت حتَّى أتأكَّد ما إذا كنتُ أكثر من مُجرَّد صديقٍ. فهل أنا كذلك؟ هل ثمَّة متسع في قلبكِ لـ«فريتز» العجوز؟

قالت «جو» :

ـ أجل!

وأحاطته بذراعيها ونظرت إليه نظرةً تعبِّر عن سعادتها بمتابعه مشوار الحياة معه، رغم عدم وجود مأوى أفضل لهما من مظلَّته العتيقة.

ثُمَّ سألته وهما يسيران معًا لا يأبهان لكُلِّ من حولهما:

ـ قل لي، ما الذي أتى بك أخيرًا في الوقت الذي كنت بأمسِّ الحاجة إليك تمامًا؟

أخرج «باير» ورقه من جيبه، وقال:

ـ هذه. لقد وجدت هذه الورقة مصادفةً، وكان فيها أبيات من الشِّعر خُيِّل إليَّ أنَّها تدعوني إلى المجيء.

وقرأت «جو» هذه الأبيات:

امرأةٌ في بيتٍ وحيدٍ

تبدو كبيت شعرٍ حزينٍ

تتطلَّع إلى حبٍّ كبيرٍ آتٍ

في يوم صيفٍ ماطرٍ

قالت «جو»، وهي تمزِّق الورقة:

ـ إنَّه شعرٌ رديءٌ، ولكنَّني كنت أحسُّ بتلك المشاعر عندما كتبته.

وتابعت قائلةً:

ـ ما الذي أخَّرك كُلَّ هذا الوقت؟

وشرح لها «باير» ظروفه. وأنَّه ما كان في وسعه أن ينتزعها من بيت أهلها قبل أن يوفر لها المنزل المناسب فهو لا يملك سوى علْمه.

قالت «جو» بحزم:

ـ أنا سعيدةٌ لأنَّك فقيرٌ، فأنا لا استطيع أن أتحمَّل زوجًا غنيًّا. لا تخش الفقر فقد خبرتُه طويلًا، ويسعدني أن أعمل من أجل مَنْ أحبُّهم.

قال «باير» :

ـ هل تستطيعين الانتظار وقتًا طويلًا يا «جو» ؟

كان بحاجةٍ إلى فترةٍ من الوقت حتَّى يستطيع أن يؤمِّن مستقبل ولديه ومعيشتهما، فضلًا عن تأمين حياته.

وقبلت «جو» الانتظار فكلاهما يحبُّ الآخر، وهذا ما يجعل الانتظار سهلًا. عليهما الآن أن يكافحا وأمَّا المستقبل فهو بيد الله.

أسعدت كلماتها قلب «باير» فقد منحته الأمل والشجاعة، أمَّا هو فلم يكن يملك سوى قلبٍ عامرٍ بالحبِّ ويدَيْن خاليَتَيْن.

قالت له «جو» عند عتبه الدار، وهى تعانقه:

ـ لن تبقى يداك خاليتين بعد الآن.

وقبَّلته تحت المظلَّة وأدخلته البيت وأغلقت الباب خلفهما.

❊❊❊

الفصل الثامن والثلاثون

حصاد السعادة

Harvest happiness

طوال سنةٍ، ظلَّ الأستاذ، و«جو» يكدَّان معًا، ويأملان ويتواصلان ويتراسلان. وفي بداية السَّنة الثانية توفيت العمَّة «مارش» فجأةً تاركةً لـ«جو» ميراثًا طيّبًا.

إنَّه بيتٌ عتيقٌ ولكنَّه فسيحٌ وجميلٌ. وظنَّ الجميع أنَّ «جو» ستبيعه، فهو بيتٌ كبيرٌ ذو حديقةٍ واسعةٍ، ويحتاج إلى مال كثير لصيانته وخدمته. ولكنَّها أصرَّت على إبقائه. فهي تريد أن تحوِّله إلى مدرسةٍ خاصَّةٍ بالأطفال تعمل هي و«فريتز» فيها.

وقالت إنَّها ليس فكرةً طارئةً، فقد راودتها هذه الفكرة منذ زمن بعيدٍ. فكم ستكون سعيدة حين تحقِّق الحلم الذي لطالما كان يراودها.

وافق الوالدان على رأى ابنتهما. وكانت سنةً رائعةً، بدت فيها الأمور تسير بسرعةٍ وعلى أحسن ما يرام.

وكانت «جو» تفكِّر بأنَّ ذلك المنزل في «بلافيلدا» يصلُح أن يكون مكانًا عائليًا للأولاد الذين يحتاجون إلى التعليم والعناية وحُسن المعاملة.

وسرعان ما تزوَّجت «جو» وحقَّقت أحلامها، ودخل مدرستها الكثير من الأولاد الذين كانوا يَدْعونها «ماما باير». واكتملت سعادتها بإنجاب طفلين: «روب» على اسم جدِّه، و«تيدى» الذي اكتسب صفات أمِّه وأبيه.

كان هناك الكثير من العطل والإجازات في«بلامفيلد»، ومن أبهجها عطله قطاف التُّفاح السَّنويَّة، حيث كانت تتجمَّع أسره «مارش»، و«لورانس»، و«بروك»، و«باير» لتحتفل بهذه المناسبة.

وقد شهدت حديقة ذلك المنزل، بعد خمس سنواتٍ من عرس «جو»، واحدةً من تلك الحفلات الرائعة التي شارك فيها الجميع مع أطفالهم وأحسُّوا بسعادةٍ غامرةٍ وبهجةٍ وحبورٍ.

وكانت «جو» في ذروة سعادتها في ذلك اليوم. وبعد أن انتهى القطاف، ووضع العشاء على العشب، راح الجميع يشربون الأنخاب، وينشدون الأغاني، ويضحكون ويمرحون.

كان الجميع في غاية السَّعادة .فـ«باير» بات يشعر بأنَّه محظوظ بسبب ما آلت إليه الأمور وما حقَّق مع زوجته من نجاحٍ.

واعتبرت «ميج» أنَّها حقَّقت كُلّ ما تتمنَّاه مع زوجها «جون» .وقالت «إيمي» إنَّ ما تحقَّق في حياتها لم يكن ضمن ما كانت تخطِّط له، ومع هذا فإنَّها لا تتمنَّى أن تغيِّرهُ أو تبدِّلهُ، فهي وزوجها راضيان عن حياتهما، وشكرت الله على سعادتها.

أمَّا «جو» فقالت:

ـ لا حاجة بي إلى القول أنّى سعيدةٌ، فهذا ما يستطيع كُلُّ أمريءٍ أن يراه، فأنا سعيدةٌ بزوجي وولديَّ وقد أعطاني الله أكثر ممَّا أستحقّ.

قالت السَّيِّدة «مارش»:

ـ أعتقد أنَّ حصادكِ يا «جو» كان جيدًا.

فقالت «جو» باندفاعٍ طفوليّ:

ـ ولكنَّه لا يصل إلى نصف حصادكِ يا أمَّاه. فنحن لا نستطيع إلَّا أن نقدِّم آيات الشكر على ما قدَّمتِه لنا.

قالت «إيمي» :

ـ آمل أن يكون حصادنا أوفر في السنوات المُقْبلة

وقالت «ميج» بصوتٍ حنونٍ:

ـ حصادٌ كبيرٌ يكون لكِ يا أمي الفضل فيه.

ولم يسع السَّيِّدة «مارش» التي تأثَّرت بالغ التأثُّر بكلمات مَنْ حولها، إلَّا أن تمدّ يديها وكأنَّها تريد أن تعانق جميع بناتها وأحفادها، وتقول بصوتٍ ملؤهُ المحبَّة والأمومة، والامتنان والتواضع:

ـ أطال الله أعماركنَّ يا بناتي الحبيبات، فأنا لا أستطيع أن أتمنّى لكنَّ إلَّا سعادةً أعظم من هذه.

مُعد ومُقدم الرواية

• وفيق صفوت مختار

• حاصل على ليسانس الآداب والتربية، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.

• حاصل على الدبلومة الخاصَّة في التربية وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربية بسوهاج.

• عمل مُحرِّرا صحافيًا بمجلة «هو وهي»، ومجلة «دُبي الثقافية».

• فاز بجائزة الشيخ «عبد المبارك الصباح» للإبداع العلمي عن نتاجه- «المُخدرات وأثرها المُدمِّر»، عن دار «سعاد الصباح» بدولة الكويت.

• سجل للتليفزيون المصري العديد من الحلقات في عدة برامج.

• تناولت جريدة الأهرام القاهرية كتابات المؤلِّف بالعرض والتحليل في باب «المرأة والطفل».

• تُرجمت بعض مقالاته إلى اللغة الإنجليزية.

• الكتب التي صدرت للمؤلِّف:

1- مشكلات الأطفال السلوكية، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999م.

2 - أبناؤنا وصحَّتهم النفسيَّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001م.

3 - المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003م.

4 - سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

5 - سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

6 - الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

7 - مشكلة تعاطي المواد النفسيَّة المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.

8 - سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.

9 - بستان المعرفة، القاهرة: دار مونالزا، 2007م.

10 - كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

11 - فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.

12 - سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010م.

13 - وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.

14 - تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.

15 - النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011م.

16 - الصحَّة النفسيَّة وأساليب تنشئة الطفل... أُسريًّا، وتربويًّا، ومجتمعيًّا، القاهرة: دار الطلائع، 2012م.

17 – الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في التاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.

18ـ الطفل الموهوب، طرق اكتشافه، وأساليب رعايته، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.

19ـ إشباع الحاجات الأساسية للأطفال: الجسميَّة، والعقليَّة، والنفسيَّة، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.

20ـ الاكتئاب مرض العصر: كشف أسراره، ومعرفة أسبابه، وإستراتيجيات الوقاية والعلاج، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.

21ـ كيف تتخلص من القلق وتبدأ الحياة من جديد، القاهرة، دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.

22ـ أحدب نوتردام رواية للأديب «فيكتور هوجو»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

23ـ أنَّا كارنينا رواية للأديب» ليو تولستوي»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

24ـ ذهب مع الريح رواية للأديبة «مارجريت ميتشل»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

25 – كوخ العم توم رواية للأديبة «هاريت بيتشر ستو»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

26ـ الآمال العظيمة رواية للأديب «تشارلز ديكنز»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

27– 1984 رواية للأديب «جورج أورويل»، إعداد وتقديم، القاهرة:دار الطلائع، 2017م.

28 – ابنة الحظ رواية للأديبة «إيزابيل الليندي»، إعداد وتقديم، القاهرة:دار الطلائع، 2017م.

29– أحدب نوتردام رواية للأديب«فيكتور هوجو»، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي، 2017م.

30– آنا كارنينا رواية للأديب«ليو تولستوي»، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي، 2017م.

31– الآمال العظيمة رواية للأديب«تشارلز ديكنز»، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي، 2017.

32 – محبوبة رواية للأديبة«توني موريسون»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2018م.

33 – نساء صغيرات رواية للأديبة«لويزا ماي ألكوت، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

34 – مدام بوفاري رواية للأديب«جوستاف فلوبير»، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017م.

• للتواصل مع المؤلِّف:

هاتف منـــزل: 4774608/ 093

هاتف محمول: 01063549339

E-mail: wafeek. safwat2016@gmail. com

الفهرس

مسلسل	الموضوع	م
الفصل الأوَّل:	رسالة الشوق والحنين	15
الفصل الثاني:	هدايا عيد الميلاد	21
الفصل الثالث:	سعادة غامرة..رغم كل المنغصات	25
الفصل الرابع:	قصص وحكايات	31
الفصل الخامس:	مغامرة داخل القصر	37
الفصل السادس:	الطيران فوق أجنحة السعادة	43
الفصل السابع:	عقوبات مرفوضة	47
الفصل الثامن:	قبلة أخوية حارة	49
الفصل التاسع:	خطط مختلفة	53
الفصل العاشر:	الاختبار القاسي..قد نجح	59
الفصل الحادي عشر:	الرحلة..والحديث الجانبي	63
الفصل الثاني عشر:	ميلاد كاتبة	69
الفصل الثالث عشر:	البرقية المشؤومة	73
الفصل الرابع عشر:	كان القدر رحيمًا	79
الفصل الخامس عشر:	الوصية	85
الفصل السادس عشر:	حلاوة الحب	89

الفصل السابع عشر:	حماقة تنتهي بسلام	93
الفصل الثامن عشر:	مناضلات صغيرات	97
الفصل التاسع عشر:	العشيقان يتأهبان للزواج	101
الفصل العشرون:	برج الحمام	107
الفصل الحادي والعشرون:	حياة الزوجية	111
الفصل الثاني والعشرون:	الوليمة!	115
الفصل الثالث والعشرون:	الجائزة	119
الفصل الرابع والعشرون:	ليس في الحب الحقيقي..كبرياء	123
الفصل الخامس والعشرون:	شقيقتان متناقضتان	127
الفصل السادس والعشرون:	الجزاء من جنس العمل	131
الفصل السابع والعشرون:	تضحية أم هروب؟	135
الفصل الثامن والعشرون:	الأخلاقيات..والرجل العظيم	141
الفصل التاسع والعشرون:	حب من طرف واحد	149
الفصل الثلاثون:	رؤى جديدة	155
الفصل الحادي والثلاثون:	حياة الدعة والكسل	159
الفصل الثاني والثلاثون:	عبر وادي الظل..ترحل	164
الفصل الثالث والثلاثون:	لحظات السعادة..والحياة المشتركة	167
الفصل الرابع والثلاثون:	الأيام الصعبة تمر	171
الفصل الخامس والثلاثون	: مفاجآت	174
الفصل السادس والثلاثون:	الوفاء	178
الفصل السابع والثلاثون:	الحب تحت المظلة	181
الفصل الثامن والثلاثون:	حصاد السعادة	186